

مختارات من
أشهر القصص العالمية

ترجمة

محمد بدران — أحمد بدران

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

مطبعة الاعتماد بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

لقد صدرت فى هذه الأيام الأخيرة عدة مختارات من القصص القصيرة الأجنبية كثير منها حسن الاختيار والترجمة ، ولكنها مع ذلك لا تغنى عن هذه المجموعة . ذلك أن كل ما يحتويه منها هذا الكتاب لكتاب محدثين ، منهم من مات منذ بضع سنين ، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة ، فهى إذن تمثل أدب القصة المعاصر أحسن تمثيل . يضاف إلى هـذا أن الكتاب الذين اخترنا لهم كلهم من الكتاب النابهين ، وكثير منهم من يعـدون من الكتاب العالميين ، ومنهم من نال أعظم جوائز الأدب العالمية . وقد حرصنا على ألا نختار لكاتب واحـد أكثر من قصة واحدة حتى تكون هذه المجموعة الصغيرة ممثلة لأكبر عدد مستطاع من الكتاب. كذلك لم نختر من كتاب كل أمة إلا كاتبا واحـدا حتى نستطيع أن نورد أمثلة لكتابات الأمم المختلفة. و إذا كان قد فاتنا أن نختار لعدد أكبر من الكتاب أو أن نختار كتابا من عـدد من الأمم أكبر من التى اخترنا منها فإنا نرجو أن نسد هذا النقص باصدار جزء ثان من هذه المجموعة . و إنا لنرجو أن يجد فيها القراء شيئا من الفائدة والمتعة .

الشقيقان

للكاتب النرويجي بجورنستچيرن بچورنسن

(جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٠٣)

١٨٣٢ — ١٩١٠

(ظل هذا الكاتب أعظم شخصية فى الأدب النرويجى الحديث حتى وفاته وكان إلى هذا يتقد حماسة وطنية . وهو واضع نشيد النرويج القومى . ومؤلفاته تتمثل فيها روح تطور النرويج بكامل معانيها . وقد كتب عدة مسرحيات شعرية وقصص قصيرة ونال فى عام ١٩٠٣ جائزة نوبل فى الأدب. وقصة الأخوين التى اخترناها له فى هذه المجموعة — وهى من أولى دراساته للحياة الريفية وتعد من أحسن ما كتب من نوعها فى آداب العالم كلها) .

كان أحدهما معلما اسمه بارد وكان شقيقه يسمى آندرز ، وكان كلاهما يجل أخاه ، عاشا فى المدينة معا وتطوعا معا للخدمة العسكرية ، وخدما فى نفس الفرقة ، وارتقى كلاهما إلى مرتبة «أونباشى» ولما عادا من الحرب كان كل الناس يرون فيهما زميلين رائعين شجاعين .

ثم مات أبوهما ، وترك متاعا شخصياً كثيراً كان من الصعب تقسيمه ، واتفقا ألا يسمحا لمثل هذه الأمور أن تفرق بينهما ، بل اعتزما أن يبيعا كل شىء بالمزاد ، وفيه يشترى كل منهما ما قد يريد ، ويقتسمان بعد ذلك حصيلة البيع ، ونفذا ذلك فعلا .

لكن كان لأبيهما ساعة ذهبية كبيرة اشتهر أمرها ، إذ كانت هى الساعة الذهبية الوحيدة التى رآها الناس فى تلك الناحية ، فلما جاء دورها كان كثير من الأثرياء يرغبون فى شرائها ، فلما دخل الشقيقان المزاد انسحبوا كلهم . وكان بارد يتوقع أن

يدعها أندرز له على حين كان أندرز ينتظر ذلك بعينه من أخيه ، فتزايدا كل منهما يريد أن ينالها من أخيه وكلما مضيا فى التزايد ازدادت نظراتهما حدة .

ولما وصل الثمن إلى عشرين ريالا بدأ بارد يشعر بالألم من تصرف أخيه وزاد فى الثمن حتى أوصله إلى ثلاثين ، ولما لم ينسحب آندرز بعد ذلك شعر بارد أنه قد نسى عطفه عليه وتذكر أنه هو أكبر الأخوين ، وارتفع الثمن عن ثلاثين فاستمر آندرز ، ثم رفع بارد الثمن إلى أربعين ريالا مرة واحدة ولم يعد ينظر إلى أخيه . وساد السكون قاعة المزاد فلم يعد يسمع فيه إلا صوت المنادى وهو يردد الأثمان فى هدوء . وقال آندرز فى نفسه : إن كان بارد يستطيع أن يدفع فيها أربعين ريالا فهو يستطيع ذلك أيضا ، وإذا كان بارد يضن عليه بالساعة فليس عليه جناح أن يأخذها منه . وبدا ذلك لبارد أكبر خزى يمكن أن يحل به فعرض خمسين ريالا فى صوت منخفض . وكان هناك كثير من الناس ، وقال آندرز لنفسه إنه لن يسمح لأخيه أن ينتصر عليه أمامهم جميعا ورفع الثمن ، وانفجر بارد ضاحكا وقال وهو يستدير مغادرا الحجرة « مائة ريال ، وأخوتك معها ! » .

وبعد قليل بينما كان يسرج حصانه الذى اشتراه من المزاد جاءه رجل وقال « الساعة لك لقد كف آندرز يده » . فلما سمع الخبر شعر بالندم ، وفكر فى أخيه لا فى الساعة ، وكان قد أسرج جواده لكنه انتظر ويده على الحصان مترددا فى الركوب ، وخرج أناس كثيرون وبينهم آندرز وقد أبصر أخاه إلى جانب جواده المسرج وهو يهم بالركوب ، ولكنه لم يكن يعرف ما يضطرب فى عقله من الأفكار ثم ناداه قائلا : «شكرا لك على الساعة يا بارد ، لن يأتى يوم ترى فيه أخاك». فأجابه بارد وقد امتقع وجهه وهو يعتلى صهوة جواده :

« لن يأتى يوم ترانى فيه على بابك مرة أخرى »

ومنذ ذلك اليوم لم يضع أحدهما قدمه فى المنزل الذى عاشا فيه مع أبيهما .

وتزوج آندرز من أسرة من الزراع بعـد ذلك بقليل ، ولـكنه لم يدع بارد إلى حفلة الزواج ، ولم يذهب بارد إلى الـكنيسة .

وفى السنة الأولى من زواجه فقد آندرز بقرته الوحيدة ، إذ وجدت ميتة ذات صباح حيث كانت معقولة ولم يستطع أن يفسر كيف ماتت ، وانتابته مصائب أخرى وساءت حاله يوما عن يوم ، لـكن الضربة القاصمة حلت به حين احترق مخزن عشبه عن آخره ذات ليلة من ليالى الشتاء ، ولم يعرف أحد كيف احترق ، وقال آندرز فى نفسه « هذا فعل شخص يحب لى الأذى » و بكى طول ليلته ، فقد أصبح رجلا فقيرا وفقد كل دافع إلى العمل . وفى الليلة التالية ظهر بارد عند منزل أخيه ، وكان آندرز على سريره فانتفض قائما حين دخل عليه أخوه وقال :

« ما الذى تبغيه هنـا ! » ثم سكت وأخذ يحملق فى أخيه . وانتظر بارد قليلا ثم أجاب :

« انى أريد مساعدتك يا أندرز . فأنت فى حالة سيئة » .

« لست أسوأ حالا مما أردت لى ! اذهب ... اذهب والا فقد لا أتمالك نفسى من الغيظ » .

« إنك مخطئ يا أندرز . انى اعتذر » .

« اذهب يا بارد . عفا الله عنا جميعا » .

وتقهقر بارد خطوة وقال بصوت مرتجف « ان كنت تريد الساعة فها هى ذى » .

فصرخ أخوه . . اذهب يا بارد ! « ولم يشأ بارد أن يبقى بعد ذلك فمضى .

وكان الذى جاء ببارد أنه قد آلمه ما حل بأخيه من الـكوارث وتبـدل غضبه من أخيه شفقة عليـه ولـكن كبرياء حال فى أول الأمر بينه و بين الذهاب إليه ، ثم أحس بدافع يدفعه إلى الـكنيسة وفيهـا أقسم ليفعلن خيراً كثيراً ولـكنه عجز عن تنفيذ شىء مما اعتزمه . وكثيراً ما كان يذهب إلى حيث يستطيع أن يرى البيت

لـكنه كان يجدشخصاً خارجاً منه ، أو يرى هناك غرباء ، أو يجد أندرز واقفاً يقطع الخشب فى الخارج ، كان هناك دائماً شىء يمنعه من الدخول .

وفى يوم أحد فى أواخر الشتـاء ذهب إلى الـكنيسة مرة أخرى ، وكان أندرز هناك فى هذه المرة ورآه بارد ، لقد غدا نحيفاً مصفراً ، وكان يلبس نفس الملابس التى كان يرتديها لما كانا يعيشان سويا ، وإن كانت الآن قديمة مرقعة . وظل آندرز طوال وقت الصـلاة ينظر إلى القسيس . وخيل إلى بارد أنه إنسان ظريف رقيق القلب . وتذكر أيام طفولتهما وكيف كان آندرز أخا طيبا ، فأقسم ليصالحن أخاه مهما حدث ، وتملـكته هذه الفكرة وسرت فى نفسه . فلما قام أحس بشىء يدفعه إلى الاتجاه نحو أخيه والجلوس إلى جانبه . لـكن كان حواليه كثير من الناس ، وكان مع آندرز زوجته وهو لم يعرفها بعد ، لذلك رأى من الأفضل أن يذهب إلى آندرز فى منزله ويحادثه حديثاً هادئاً .

ولما أقبل المساء اتخذ طريقه إلى المنزل ، فلما وصل إلى الباب انتظر قليلا ، فقد سمع اسمه يذكر فى داخل الدار وكانت زوجة أخيه تقول : « إنى واثقة أنه كان يفكر فيك فقـــد ذهب إلى الـكنيسة فى هذا الصباح » فأجابها آندرز : « كلا لم يكن يفكر فى . إنى أعرفه . فهو لا يفكر إلا فى نفسه » .

ولم يسمع شيئاً بعد ذلك ، وكان واقفاً والعرق يتصبب منه رغم أن الليلة كانت باردة ، وكانت الزوجة مشغولة بعمل الشاى ، وسمع فى الداخل حسيس النار بينما كان طفل يصرخ بين حين وآخر ، وكان آندرز يهزه بيـديه ، ثم تكلمت الزوجة مرة أخرى :

« أعتقد أن كلا منكما يفكر فى الآخر رغم أنكما لا تعترفان بذلك » .

فقال آندرز « دعينا نتكلم فى موضوع آخر » .

وبعد قليل قام ليخرج ، واضطر بارد أن يختبئ فى مخزن الخشب ، لـكن

آندرز أيضاً جاء ليأخذ قطعة منه ، واستطاع بارد أن يراه بجلاء وهو مختبئ في ركنه؛ وكان في هذه المرة قد خلع حلة يوم الأحد ولبس حلته العسكرية التي تشبه حلة بارد ، وكانا قد تعاهدا ألا يلبساها وأن يورثاها أبناءهما . وكانت حلة آندرز قد غدت بالية مرقعة فكان جسمه القوى الممتلئ يبدو فيها وكأنه ملفوف في خرق بالية . أما بارد فقد كان يسمع الساعة الذهبية تدق في جيبه ، وذهب أندرز إلى حيث كان الخشب ولكنه بدل أن ينحنى من فوره ليجمع منه ما يريد ارتكن إلى لوح منه ونظر إلى السماء والنجوم تلتمع فيها وتمتم « يارب ! ... خيراً ... خيراً يارب ! » .

لم ينس بارد طول حياته هذه الكلمات ، لقد هم حينئذ أن يتقدم إليه لكن الأخ سعل سعالا شديداً كان في حد ذاته كافيا لأن يحول بينه و بين التقدم إليه . وأخذ آندرز ما يريده من الخشب ومضى خارجا ، وقد مر قريبا من بارد حتى لقد مست الفروع وجهه .

ووقف بارد بعد ذلك عشر دقائق وكأنما تسمر في مكانه ، ويعلم الله كم من الوقت كان يقف لولا أنه شعر بقشعريرة تتمشى في جسمه فضلا عن إجهاده العاطفى ، فخرج وقد اعترف لنفسه بأنه لا يجسر على الدخول الآن . لذا فكر في طريقة أخرى فعاد إلى المخزن وأغلق بابه وأخذ بعض قطع من الفحم من برميل للرمال كان في أحد الأركان ، ووجد شظايا رفيعة من خشب الاشراق ، وذهب إلى أكوام الدريس وأغلق الباب وأوقد قطعة من الخشب لتضيء له ، و بحث عن المشجب الذى كان أندرز يعلق عليه مصباحه إذا جاء في الصباح الباكر ليدرس القش ، ثم أخرج الساعة الذهبية وعلقها ، وأطفأ النار ومضى ، وكان مستريح البال ، مطمئن الخاطر حتى أنه كان يسرع الخطى على الثلج ويكاد يقفز وكأنه صبى صغير .

وفى اليوم التالى سمع أن أكوام الدريس قد احترقت في تلك الليلة ، ولعل شرارة قد طارت من نار مشعله وهو يعلق الساعة .

وحزن بارد أشد الحزن حتى لزم منزله طول ذلك اليوم وأحس كأنه مريض . وأخذ كتاب الأناشيد الدينية وشرع يترنم حتى ظن من فى المنزل أنه قد جن . لكنه خرج فى المساء وكان ضوء القمر ساطعا ، وذهب نحو مقر أخيه . وأخذ يبحث فى الرماد حتى وجد قطعة من الذهب المنصهر هى كل مابقى من الساعة ،

وأخذها فى يده ، وذهب إلى أخيه ليشرح له كل شىء وينشد السلام .

أما ما حدث له بعد ذلك فقد شرحناه من قبل .

وكانت طفلة صغيرة قد رأته ينقب بين الأخشاب ، ولمحه بعض الفتيان وكانوا فى طريقهم إلى المرقص فى تلك الليلة التى ذهب فيها إلى بيت أخيه ، ووصف جيرانه أحواله الغريبة فى اليوم التالى .

ولما كان كل إنسان يعلم بعداوته لأخيه فقد وصلت هذه التفاصيل إلى السلطات وبدىء فى التحقيق ؛ ولم يثبت عليه شىء ، لكن الشبهات حامت حوله ، وأصبح الآن — أكثر مما كان فى أى وقت آخر — لا يستطيع الاقتراب من أخيه .

لقد شك آندرز فى بارد حين احترقت كومة الدريس لكنه لم يقل شيئا ، ولما أن رآه يدخل بيته فى الليلة التالية وهو ممتقع الوجه غريب الأطوار قال فى نفسه : « لقد ندم على ما فعل ، ولكن الفعلة التى فعلها ليست مما يصح العفو عنه » . وقد سمع بعدها كيف أن الناس رأوا بارد ليلة الحريق سائرا نحو منزله . ورغم أن التحقيق لم يلق ضوءاً على الحادث فقد اعتقد فى قرارة نفسه أن أخاه هو الجانى واعتبر هذا الفعل جرماً لا يغتفر .

وتقابلا بعد ذلك فى المحاكمة ، بارد فى بذته الحسنة ، وآندرز فى خرقه البالية ، ونظر بارد إلى أخيه وهو يدخل ، وأحس آندرز فى قرارة نفسه أن أخاه يتوسل إليه ، وأن عيناه تنمان عن هذا الرجاء ؛ وقال لنفسه والدموع فى عينيه : « إنه يسألنى ألا أقول شيئا ضده . ولما سئل هل يتهم أخاه أجاب بصوت عال ولهجة حازمة « لا » .

وأغرق آندرز من ذلك اليوم همومه فى الشراب، وسرعان ما ساءت حاله، غير أن بارد كان أسوأ منه حالا رغم بعده عن الشراب ، لقد تغير حتى لم يعد الناس يعرفونه .

وذات ليلة جاءت امرأة فقيرة إلى الحجرة الصغيرة التى يستأجرها بارد ، ورجت أن يرافقها ، وعرفها بارد فقد كانت زوجة أخيه ، وأدرك نوع المهمة التى جاءت من أجلها فامتقع لونه وأسرع بارتداء ملابسه . وتبع المرأة دون أن ينبس بكلمة . وكان بصيص من النور يلتمع فى نافذة آندرز حينا و يتلاشى حينا ، وقد تبعا هذا الضوء ، فلما وقف بارد مرة أخرى فى المدخل قابلته رائحة غريبة كادت تخنقه ، وكان طفل صغير جالسا بجوار الموقد يأكل قطعا من الفحم ، وكان مسود الوجه، ونظر إليهما وضحك حتى بدت أسنانه البيضاء ، وكان هذا ابن أخيه .

وكان آندرز فى سريره ملتفا بكل ملابسه ، مصفر الوجه ، هزيل الجسم ، معتل الصحة ، وكانت جبهته عالية ناصعة ، وكان يحملق فى أخيه بعينين فارغتين ، واصطكت ركبتا بارد وجلس إلى جانب السرير وطفق يبكى بكاء مرا ، فنظر الرجل المريض إليه ولم يقل شيئا ، و بعد قليل طلب إلى زوجته أن تتركهما ، لكن بارد أشار إليها أن تبقى . ثم بدأ الشقيقان يتحادثان ، وشرحا كل شىء منذ اليوم الذى تزايدا فيه على الساعة إلى هذا اليوم الذى تلاقيا فيه مرة أخرى ، وانتهى بارد بأن أخرج قطعة الذهب المنصهر التى كان يحملها دائما معه . وقد أدركا خلال حديثهما أنهما لم يكونا قط سعيدين يوما من الأيام .

ولم يقل آندرز شيئا كثيرا ، فقد كان فى منتهى الضعف ، و بقى بارد يعنى به طيلة أيام مرضه ،

وذات صباح عند ما استيقظ آندرز قال :

«إنى أشعر بتحسن الآن ، وسنعيش يا أخى سويا كما كنا فى الأعوام الخالية، ولن نفترق أبداً » .

لـكنه مات فى ذلك اليوم نفسه .

أما الأرملة والطفل فقد أخذهما بارد معه ورعاهما أحسن رعاية ، وكان ما تهامس به الأخوان بجانب السرير فى الحجرة المغلقة قد اخترق الجدران وعرفـه كل من فى الوادى ، وصار بارد أعظم الناس قدرا ، وأجـله الناس إجلالهم رجلا أصيب برزء فادح ثم وجد السلام مرة أخرى ، أو رجلا عاد بعد غيبة طويلة ، وزاده حبهم إياه ثقته بنفسه . وأصبح بارد رجلا تقيا . وأراد أن يكون ذا نفع لغيره فانقلب الأونباشى القديم معلما ، وكان أهم ما يعنى بغرسه من الفضائل فى نفوس الصبيان هو الحب أولا ، والحب أخيراً ، وكان هو أول من عمل بهذه العقيدة حتى أحبه الصبيان جميعا واتخذوه رفيقا للهوهم وأبا لهم .

العقـــــد

للكاتب الفرنسي جي ده موپسان

١٨٥٠ — ١٨٩٣

نابغة فرنسا فى كتابة القصة القصيرة بدأ حياته موظفا فى الحكومة ، وكان صديقا حميا لفولتير ،وكان يجتمع فى بيته ،معظم رجال الأدب النابهين فى ذلك الوقت . وقد بدأ هو الكتابة بتشجيع فولتير نفسه. وكان موپسان رجلا جم النشاط عظيم الحيوية ولكنه أتلف صحته بالافراط حتى اختتمت حياته خاتمة محزنة فى مستشفى للأمراض العقلية .

كانت إحدى الفتيات الجميلات الساحرات ممن شاء القدر أن يولدن فى أسر متواضعة ، ولما كانت لا تمتلك بائنة تغرى أحد الرجال البارزين أو الأثرياء بأن يحبها و يتزوجها ، فقد وافقت على الزواج من كاتب صغير فى وزارة المعارف .

وكانت ملابسها بسيطة لأنها لم تكن تطيق تكاليف الأناقة ، لكنها كانت تبدو من التعاسة كأنها تزوجت رجلا أقل منها منزلة . ذلك أن النساء لا يعتمدن على شرف المولد أو علو النسب بل يعتمدن على الجمال والرشاقة والسحر . فالرقة الطبيعية والذوق الجميل فى التزين والقدرة على الانسجام مع من حولهن ، هذه وسائلهن إلى الارستقراطية ، وكثيراً ما ترفع فتيات من الطبقة الدنيا إلى منزلة أعظم السيدات العريقات فى النسب .

وكانت تسيطر عليها وتقلق بالها على الدوام فكرة أنها ولدت لترفل فى حلل الترف والبذخ . وكم كانت تتألم حين ترى ما يحيط بها من مسكن حقير وأثاث قديم وستائر رثة. وكانت صغائر الأشياء التى لاتكاد تقلق بال أية امرأة من طبقتها تعذبها

وتفت فى عضدها ، فكانت إذا رأت خادمتها الوحيدة التى تقوم بجميع أعمال الدار أثارت رؤيتها فى قلبها آمالها الضائعة ، و بعثت فى نفسها حنينا إلى المتعة يكاد يذهب بعقلها. كانت ترى بعين الخيال الأبهاء الساكنة المفروشة بالسجاجيد الشرقية ، تضيئها الثريات المتلألئة، والحجرات الواسعة بستائرها الحريرية ، والخدم ذوى الملابس الزاهية مصطفين حول الكراسى الساندة ، والموقد الذى يشع الدفء فى أنحاء الحجرة ، والنضد الجميلة عليها تحف غالية أعدت للاجتماع بالأصدقاء الأعزاء من الرجال البارزين المعروفين الذين يستهوون كل امرأة . وكانت إذا حان وقت العشاء تجلس إلى جانب مائدة مستديرة عليها غطاء لم يرفع عنها منذ ثلاثة أيام ، وأمامها زوجها يرفع الغطاء عن وعاء الحساء وينادى «ألا ما ألذ هذا الحساء ، إنه طعامى المحبوب» . أما هى فكانت تفكر فى الموائد الفاخرة ، وقد أثقلت بالأطعمة الشهية فى أطباق فضية لامعة ، وفى حجرات زينت جدرانها بالرسوم الجميلة تمثل أشخاصا وأطيارا غريبة فى غابات سحرية . وكانت تحلم بلذيذ الطعام يقدم لها فى صحاف نادرة عجيبة ، وبهمسات تسر إليها فتفتر عن ابتسامة شبيهة بابتسامة أبى الهول ، ويداها تعبثان بتقطيع لحم سمكة جميلة أو جناح دجاجة سمينة .

ولم يكن لديها أثواب جميلة ولا جواهر ثمينة ، وإن كانت لا تعنى بغير الملابس والجواهر ، وتحس بأنها ما خلقت إلا لتتمتع بها . كانت تتوق إلى أن ترى نفسها تفتن وتستهوى ، تحسدها النساء ويتودد إليها الرجال . وكانت لها صديقة ثرية من أيام الدراسة ، لكنها انقطعت عن زيارتها لأنها بعد كل زيارة لها كانت تقضى يومها بين دموع الحزن والأسى والبؤس والشقاء .

وعاد زوجها ذات يوم إلى منزله مزهوا وفى يده خطاب كبير وصاح : «هذا شىء لك ! »

وسرعان ما فضت الغلاف وأخرجت منه بطاقة طبع عليها :

« يتشرف وزير المعارف وحرمه بدعوة السيد والسيدة لوازل لحضور حفلة استقبال فى الثامن عشر من يناير بدار الوزارة »

و بدلا من أن يستخفها الفرح كما كان يتوقع زوجها ألقت بطاقة الدعوة باهتياج على الخوان وصاحت « وماذا تفيدنى هذه الدعوة ؟ »

« لقد كنت أظن أنها تسرك ، فإنك لا تخرجين من منزلك أبدا ، وهذه فرصة نادرة طيبة تتيح لك الخروج منه . لقد تعبت كثيرا حتى حصلت عليها ، فكل إنسان يحاول أن يحصل على دعوة لأن الدعوات محدودة ولم يحصل عليها من الكتبة إلا عدد قليل ! وسترين هناك كل كبار الموظفين »

فنظرت إليه وهى محنقة وقالت له : « وما تظننى أرتدى فى مثل هذا الحفل ؟ »

ولم يكن قد فكر فى هذا الموضوع من قبل ، ولكنه أجاب مترددا « إن هذا الثوب الذى تلبسينه فى المسرح يبدو لى غاية فى الجمال ... » .

لكنه لم يتم جملته ، فقد رأى زوجته تبكى ، وانحدرت دمعتان كبيرتان على خديها .

وقال وقد غص بريقه ! « يا لله ماذا حدث ؟ » .

واستطاعت بجهد شديد أن تتغلب على عواطفها وقالت فى صوت هادئ وهى تجفف دموعها .

« لا شىء ! كل ما فى الأمر أنى ليس عندى رداء للسهرة ، ولذلك لن أستطيع الذهاب إلى هذه الحفلة . فأعط الدعوة لأحد أصدقائك ممن تمتلك زوجاتهم ملابس أحسن من ملابسى » .

فحزن الزوج لذلك أشد الحزن وقال لزوجته :

« دعينا نبحث الأمر ياماتلدا . كم تظنين يكلف ثوب السهرة ، على أن يكون ثوبا بسيطا يمكن الاستفادة منه فيما بعد ؟ » .

وفكرت فى الأمر لحظات وهى منشغلة فى الحساب تسائل نفسها أى مبلغ تستطيع أن تقترح دون أن تهز مشاعر الكاتب الصغير هزا ، وتلقى منه رفضا باتا . ثم قالت : « لست أدرى ، لكننى أظن أنى أستطيع تدبير الأمر بأربعمائة فرنك » .

فامتقع وجهه قليلا ، لقد طلبت بالضبط مقدار ما أدخره لشراء بندقية والقيام برحلات الصيد فى أيام الآحاد فى الصيف القادم مع بعض الأصدقاء فى سهل تانتير ، لكنه أجابها بقوله :

« حسنا جدا . سأعطيك الأربعمائة فرنك . لكن احرصى على أن يكون ثوبا أنيقا حقا » .

وقرب يوم الحفلة . ورغم أن الثوب قد أعد ، فقد كانت السيدة لوازل قلقة غير راضية ؟

وسألها زوجها ذات مساء « ما الخبر ؟ لقد تغيرت حالك فى الأيام الثلاثة الماضية »

« نعم . يحزننى أن ليس لدى جواهر أتزين بها ، حتى ولا قرط . وسأشعر دائما أننى فقيرة . إن من الخير ألا أذهب إلى الحفلة » .

ولكنك تستطيعين أن تتزينى ببعض الزهور الناضرة . إنها «طراز» هذا العام! وفى وسعك أن تحصلى على وردتين جميلتين أو ثلاث وردات بعشرة فرنكات » .

لكنها لم تقتنع وقالت « لا . . . ! ليس أشد إيلاما للنفس من الظهور بمظهر الفقر وسط جماعة من السيدات المثريات » .

« ألا ما أشد حمقك ! لماذا لا تطلبين إلى صديقتك مدام فوستييه أن تعيرك بعض جواهرها ! إن لك من الصلة بها ما يجيز هذا الطلب » .

وهنا صاحت الزوجة فرحة « طبعا ! لم يخطر ذلك ببالى » .

وفى اليوم التالى زارت مدام فورستييه وشرحت لها المسألة ، فقامت مدام فورستييه إلى خزانتها وجاءت بحقيبة جواهر كبيرة وفتحتها أمام صديقتها لتختار منها ما تريد .

فانتقت مدام لوازل عقدا من اللآلئ و بعض الأساور وصليبا بندقيا مصنوعا من الذهب ومرصعا بالحجارة الكريمة .

فأحاطت عنق صديقتها بذراعيها وقبلتها ، وأسرعت نحو كنزها الثمين ، وتزينت بهذه الحلى ، ونظرت إلى صورتها فى المرآة ، وترددت بعض الشىء ، ولم تطاوعها نفسها لأن تخلعها وتردها إلى صاحبتها .

وظلت تردد سؤالها « أليس عندك غير هذه الحلى ؟ » .

فأجابتها « بلى عندى فها هى ذى . أنظرى ولست أعرف ماذا تؤثرين » .

وأبصرت أخيرا علبة مكسوة بالحرير فى داخلها عقد فخم من الماس ، فدق قلبها وتاقت نفسها للتزين به ، ومدت يديها إليه وهما ترتجفان ، وأخرجته من موضعه ، وطوقت به جيدها وأخذت تنظر إلى خيالها فى المرآة فى غبطة وانشراح .

ثم قالت فى تردد وارتياب ! « أتعيرينني هذا ؟ انك إن فعلت فلن أحتاج إلى شىء سواه » .

« نعم بكل تأكيد » .

وكانت ليلة الاستقبال ، وكان نصر مدام لوازل مؤزرا ، كانت آية فى الأناقة والبهجة ، وكانت فى ثوبها البديع أجمل امرأة فى الحفلة ، كان الرجال يحدقون فيها ويسألون عن اسمها ، ويطلبون أن يقدموا إليها ، وطلب الشبان إليها أن تراقصهم ، بل إنها جذبت إنتباه الوزير نفسه .

ورقصت كثيراً وهى مذهولة من الفرح معجبة بجمالها الفاتن ونجاحها العظيم ، وكانت تخطو كأنها فى حلم لذيذ ومن حولها الناس الذين أثارت فى قلوبهم الإعجاب بمكانتها والخضوع لها ، والذين ظفرت بهم ذلك الظفر العزيز على قلوب النساء . واستطاعت انتزاع نفسها من الجمع حوالى الرابعة صباحا ، وكان زوجها مع ثلاثة من زملائه من منتصف الليل فى انتظار فراغ زوجاتهم من اللهو فى حجرة استقبال صغيرة

مهجورة . فلما جاءته ألقى بمعطفها على كتفيها ، المعطف القديم الذى كان التناقض يبدو واضحا بين حقارته وفخامة ثياب الرقص . وكانت تدرك ما بين ثيابها الخارجية وثياب السهرة من تناقض ، فأسرعت بالخروج حتى لا تقع عليها عين النساء ذوات الفراء الفخم الجميل . وحاول زوجها أن يهدئ من سيرها فقال لها : « انتظرى هنا حتى أستدعى عربة فإنى أخاف عليك أن يصيبك البرد فى خارج الدار » ، ولكنها لم تستمع إليه وأسرعت نازلة على الدرج وخرجت ومعها زوجها إلى عرض الطريق ، ولكنها لم تجد عربة . وظلا يبحثان وينا ديان السائقين الذين تقع عليهم أعينهما من بعيد . فلما يئسا من العثور على ضالتهما اتخذا سبيلهما وهما يرتعشان من البرد حتى وصلا ضفة السين ، وأخيراً وجدا إحدى العربات العتيقة التى لا ترى فى باريس إلا بعد أن يخيم الظلام ، كأنها تخجل أن تعرض حقارتها فى ضوء النهار ! .

وأقلتهما العربة إلى باب دارهما فى شارع الشهداء ، وصعدت متثاقلة . لقد انتهى كل شىء بالنسبة إليها ، أما زوجها فكان يفكر فى أن عليه أن يكون فى مقر عمله قبل الساعة العاشرة صباحا .

وخلعت ثيابها الخارجية أمام المرآة لتلقى نظرة وداع أخيرة على نفسها فى كمال زينتها ؛ لكنها ما لبثت أن صرخت صرخة عالية مفاجئة . ذلك أنها لم تجد العقد الماس حول جيدها .

وسألها زوجها وكان قد خلع نصف ملابسه : « ما الخبر ؟ » فاستدارت إليه فى فزع وقالت :

« إنى ... إنى ... فقدت عقد مدام فورستييه ! » .

فقال فى فزع : « ماذا ؟ فقدت الجواهر ؟ إن هذا مستحيل » .

وبحثا فى طيات الثوب وفى كل الجيوب ولكن فى غير طائل .

« هل أنت واثقة من أنه كان حول عنقك حين خرجنا من حفلة الرقص ؟ »

« نعم . أذكر أنى تحسسته ونحن فى ردهة وزارة المعارف »

« ولكن لو كنت فقدته فى الشارع لسمعنا صوت وقوعه ، لا بد أنه وقع فى العربة »

« نعم . أظن ذلك ! هل أخذت رقمها ؟ »

« لا ، هل أخذتها أنت ؟ »

« لا ! »

وحملق كلاهما فى الآخر وهو فى شدة الذهول وأخيراً ارتدى لوازل ملابسه مرة أخرى .

« سأذهب للبحث عنه فى الطريق الذى قطعناه ماشيين لعلى أعثر عليه »

وغادر المنزل ، أما هى فلم تجد إلى النوم سبيلا وفقدت المقدرة على التفكير ، فألقت بنفسها على كرسيها وهى فى ملابس السهرة دون أن تشعل النار لتدفئ بها نفسها ، وعاد زوجها إليها حوالى الساعة السابعة ، وأخبرها أنه لم يجد الماس . وأبلغ الأمر إلى الشرطة وأعلن فى الصحف عن جائزة ، وقام بتحريات في محال العربات القديمة ، وزار كل مكان يظن فيه بارقة من الأمل .

وظلت زوجته طوال النهار تعانى الآلام ، وقد هدت هذه المصيبة ركنها وكسرت فى ذرعها .

وعاد لوازل بعد الظهر ، وهو ممتقع الوجه ، لقد ذهبت كل جهوده أدراج الرياح ، وقال :

« يجب أن تكتبى إلى صديقتك لتخبريها بأن قفل العقد قد كسر وأنك تصلحينه ، وهذا يعطينا بعض الوقت نتدبر فيه الأمر »

و بعد أسبوع لم يبق لديهما أمل ، وقال لوازل وقد بدا أكبر خمس سنوات مما كان عليه من قبل :

« يجب أن نتخذ الوسائل التى تمكننا من تعويض الجواهر المفقودة » .

وفى اليوم الثانى أخذا العلبة الفارغة وذهبا إلى الصائغ الذى وجدا اسمه على غطائها من الداخل ، ونظر هذا فى دفاتره فقال لهما: « إن العقد لم يشترمنى يا سيدى، وكل ما يمكن أن يكون لى به من علاقة أننى بعت العلبة التى كان فيها »

وذهبا من جوهرى لآخر يحاولان أن يجدا عقداً يماثل العقد الذى فقداه بالضبط مستعينين فى هذه المقارنة بما يذكرانه من صفات العقد المفقود . وكان كلاهما قد أمضه الحزن واليأس .

وأخيراً عثرا على عقد من الماس خيل إليهما أنه يشبه العقد المفقود كل الشبه ،وكان ثمنه أربعين ألف فرنك . ورضي الجوهرى أن يبيعه لهما بستة وثلاثين ، وتوسلا إليه ألا يتصرف فيه قبل ثلاثة أيام، واشترطا على البائع أن يشتريه منهما بأربعة وثلاثين ألفاً إن وجدا العقد الأصلى قبل آخر فبراير .

وكان لوازل قدورث عن أبيه ثمانية عشر ألف فرنك واعتزم أن يقترض الباقى، وعقد من أجل ذلك قروضاً متعـددة . فاقترض ألف فرنك من هذا وخمسمائة من ذاك وخمسة جنيهات ذهبية من ثالث وثلاثة من رابع . وأخذ على نفسه مواثيق بأداء الديون ، وقبل من الشروط أفدحها ، ولجأ إلى المرابين و إلى كل من يتخذ إقراض المـال حرفة له ، وقامر بمستقبله كله ووقع بإمضائه كل ما طلب إليه أن يوقعه ، وهو لا يدرى هل يستطيع الوفاء بما أخذ نفسه به . فلما تم له الحصول على المبلغ المطلوب ذهب ليأتى بالعقد الجديد وهو كاسف البال ؛ يفكر فيما سيحل به من آلام فى مستقبل الأيام ، وفى الكارثة التى لا شك أن ستحل به ، وفيما سيضطر إليه من حرمان وعذاب فى الجسم والعقل . فلما وصـل إلى الجوهرى وضع مبلغ الأربعين ألف فرنك أمامه .

ولما ذهبت مدام لوازل لإرجاعة أنبتها مدام فورستييه وقالت لها :

«لقد كان يجب عليك أن تعيديه قبل الآن فلعلى كنت أحتاج إلى لبسه»

ولحسن الحظ لم تفتح العلبة ؛ فماذا كان يحدث لو لاحظت أى اختلاف دقيق بين العقدين ؟ وماذا كانت تظن ؟ وما ذا تقول ؟ ربما اتهمتها بالسرقة !

وعرفت مدام لوازل الآن الآم الفقر المدقع وتعودته ولبست له لبوسه ، وقاست آلامه ، وصبرت عليه صبر الأبطال ، فلقد كان عليها أن تؤدى الدين كاملا ، فطردت الخادمة وغادرت الشقة وسكنت فى علية ، وقامت بكل أعمال المنزل الشاقة وأعمال المطبخ ، تغسل الأوانى عقب الطعام ، وتغسل الثياب وتعلقها على الحبال لتجف ، وتحمل القمامة كل صباح إلى الشارع ، وتحضر الماء ، وتقف كل بضع خطوات لتستعيد قواها ، وتخرج كل صباح كما يخرج نساء العمال وسلتها فى يدها إلى البدال والقصاب وبائع الخضر ، وتساوم وتقاتل فى سبيل دانق . وكان لا بد من تغيير السفاتج القديمة بأخرى جديدة فى آخر كل شهر كسبا للوقت . واشتغل زوجها بعد الظهر حاسبا فى محل تجارى ، وكان يقوم بالليل بنسخ الأوراق نظير دراهم قليلة . ودامت هذه الحال السيئة عشر سنين .

وفى نهايتها وفى بالدين عن آخره و بالأرباح الفاحشة والفوائد المتراكمة .

وأصبحت مدام لوازل تبدو سيدة عجوزا ، ومثالا المرأة الفقيرة فى خشونتها وتقشفها . أهملت شعرها ، واحمرت يداها ، واخشوشن صوتها ، وتعودت غسل الأرض بقوة ، ولكنها كانت فى بعض الأحيان حين يكون زوجها فى عمله تجلس بجانب النافذة وتسبح بأفكارها بعيدا إلى تلك الليلة ليلة جمالها وانتصارها . ماذا لو لم تفقد العقد ؟ من يدرى ؟ كم من أشياء تافهة تستطيع أن تتحكم فى حياتنا .

وذهبت فى يوم أحد للنزهة فى الشانزلزيه ، للاستجمام بعد أسبوع من العمل الشاق ، ورأت سيدة ومعها طفل ، وعرفت فيها مدام فورستييه ، كانت تبدو كعهدها صغيرة جميلة جذابة . وشعرت مدام لوازل بهزة تسرى فى جميع جسمها . هل تتحدث

إليها ؟ ها هو ذا الدين قد وفى به ، فلم لا تخبرها بالقصة كلها ؟ ولم لا ؟

« صباح الخير ياجين » . ولم تعرفها صديقتها ودهشت من لهجتها ، وعجبت كيف تخاطبها سيدة وضيعة دون كلفة ، وأجابتها وهى مترددة :

« إننى متأسفة . فلست أعرفك . لابد أنك مخطئة »

« لا . إننى ماتيلدا لوازل» ، وأفلتت من صديقتها صيحة دهشة .

« يا عزيزتى المسكينة ! لشد ما تغيرت ! »

« نعم لقد قاسيت كثيرا مذ رأيتك لآخر مرة . وكل هذا بسببك . »

« بسببى أنا ! ؟ ماذا تعنين ؟ »

« هل تذكرين عقد الماس الذى أعرتنى أياه لأتحلى به فى حفلة الاستقبال عند وزير المعارف ؟ »

« نعم ، وماذا بعد ذلك ؟ » — « لقد فقدته »

« لست أفهم ؟ إنك أرجعته إلىّ »

« إنى أحضرت إليك عقدا آخر يماثله تماما ، ولقد ظللنا طوال العشر السنين الماضية نؤدى ثمنه . وأنت تعلمين أنا لم نكن نملك مالا ، وأن أداء هذا الثمن قد أبهظ كاهلنا . على أية حال لقد انتهى الأمر وليس فى وسعى أن أخبرك بما نلت من راحة بعد أن وفينا بالدين . »

وجمدت مدام فورستييه فى موضعها .

« هل تقصدين أنك اشتريت عقدا من الماس بدل عقدى ؟ »

« نعم ! ولم تلاحظيه ، لقد كان يشبهه تماما . . . وابتسمت فى فخر ورضا وأمسكت مدام فورستييه بكلتا يديها فى ألم شديد .

«مسكينة . ياماتيلدا . إن عقدى كان من الماس الزائف ولم يكن يساوى أكثر من خمسمائة فرنك !! »

قصة الطبيب والحقيبة الكبيرة

للكاتب الاسكتلندى ربرت لويس استيفنسن

(ولد فى سنة ١٨٥٠ ، ومات سنة ١٨٩٤ . وقد لازمه المرض طيلة حياته حتى قضى عليه فى سن مبكرة . وكان شغوفا بالمغامرة متيما بالجمال، وسيظل من أعلام الأدب الإنجليزى ، وستظل روايات المغامرات التى كتبها «جزيرة الكنز» و « المخطوفة » و « كاتربوتا » تخلب الألباب . وهذه القصة التى تقدمها الآن مأخوذة من كتابه « نادى الانتحار » وهو مجموعة من القصص القصيرة وقد مثلت على الشاشة البيضاء ولاقت نجاحاً كبيرا)

كان المستر شيلاس سكودا مور شابا أمريكيا بسيط الطبع بعيدا عن الشر . ومما كان يزيد فى قيمة طباعه أنه كان من سكان نيو إنجلند ، وهى جزء من الدنيا الجديدة لا يشتهر بمثل هذه الطباع . وكان رغم ثروته الواسعة يحتفظ بمفكرة صغيرة للجيب يدون فيها كل ما ينفق ، وقد اختار أن يدرس مغريات باريس من الطابق السابع فى « فندق » فى الحى اللاتينى . وكان شحه يرجع فى الغالب إلى حكم العادة ، وكانت أهم فضائله التى اشتهر بها بين زملائه هى الحياء والشباب .

وكانت تسكن فى الغرفة المجاورة له سيدة ذات مظهر جدى جذاب،شديدة الأناقة فى تجملها ، ظنها أول ما وصل أميرة لكنه عرف بعدئذ أنها تدعى مدام زفيرين ، وأنها أياً كان مركزها فى الحياة ليست ذات لقب . وكثيرا ما كانت مدام زفيرين تزاحم الأمريكى الشاب على سلم الفندق وتتعطف عليه بكلمة ونظرة من عينيها السوداوين ثم تختفى بين حفيف الملابس الحريريه وهى تظهر له كعبها وساقيها الجميلتين ، ولعلها كانت تفعل هذا لتقتنص الأمريكى الشاب . ولكن هذه الحركات لم تكن تشجع المستر سكودامور بل كانت توقعه فى الحيرة وتخجله ، وكثيراً ما جاءت إليه فى الليل تسأله الثقاب أو تعتذر إليه من مضايقات كلبها المزعومة . لكن فمه كان يغلق فى

حضرة سيدة فى مثل هذا السمو وينسى كل ما عرفه من اللغة الفرنسية فى الحال ، ولا يستطيع إلا أن يحملق فيها حتى تغادره ؛ ورغم هذا فكثيرا ما تحدث عنها فى زهو إذا ما أيقن أن ليس معه إلا قليل من الرجال .

وفى الغرفة التى تلى حجرة الأمريكى من الجهة الأخرى — فقد كان فى هذا الطابق ثلاث غرف — كان يعيش طبيب إنجليزى ينتاب سمعته الشك . وقد اضطر الدكتور نويل — وكان هذا اسمه — أن يغادر لندن حيث كان يتمتع بشهرة واسعة متزايدة ؛ وكان البعض يقول إنه كان لرجال الشرطة دخل فى هذا الانتقال . وكان من عادته وهو صاحب المركز الكبير فى حياته المبكرة أن يتجول الآن فى الحى اللاتينى منفردا فى شىء كثير من البساطة ويهب معظم وقته الدرس ، وقد تعرف به المستر سكودامور ، وكانا من وقت إلى آخر يتناولان العشاء سويا فى مطعم على ناصية الشارع يمتاز برخصه .

وكان لسيلاس سكودامور كثير من العيوب الصغيرة لا تزرى به كثيراً ولا تحول رقة طباعه بينه وبين الانغماس فيها ، وكان أهم هذه النقائص حب الاستطلاع ، فقد ولد فضوليا ، وكانت الحياة — وعلى الأخص نواحى الحياة التى لم يجربها — تسره إلى درجة تثير العواطف .

وكان يتساءل فى قحة ويتدخل فى كثير من النواحى بقلة تبصر ، وقد شوهد مرة يحمل خطابا إلى صندوق البريد ويرفعه فى يده ويقلبه من كل ناحية ، ويدرس العنوان فى عناية . ولما أن وجد فراغا فى الجدار الذى يفصل غرفته عن غرفة مدام زفيرين لم يشأ أن يسده بل زاده إتساعا ، وهذب الفتحة واستخدمها ليتجسس منها ويحشر أنفه فى شئون جارته .

وفى يوم من أواخر شهر مارس ، وكان فضوله قد ازداد حتى أوسع الفتحة

ليستطيع أن يكشف ركنا آخر من الغرفة ، ذهب فى المساء كعادته ليرقب حركات مدام زفيرين ، ولكنه دهش إذ وجد الفتحة قد سدت من الجهة الأخرى ، وزادت دهشته حين أزيح السداد فجأة وطرقت أذنه عاصفة من الضحك . ويظهر أن الذى دعا إلى سدها أن سقوط بعض الجير قد كشف سر فتحة الجدار ، ورأى جارته ترد تحيته . وشعر مستر سكود امور بكثير من الضيق . وغضب على مدام زفيرين غضباً شديداً ، لكنه لام نفسه فيما بعد حين وجد فى اليوم التالى أنها لم تعمل عملا يحرمه متعته المحببه إليه ، فقد استمر فى الإستفادة من إهمالها لإشباع فضوله .

وفى اليوم التالى إستقبلت مدام زفيرين فى زيارة طويلة رجلا طويل القامة ضعيف البنية فى الخمسين أو يزيد ، لم يره سيلاس من قبل . وكان قميصه الملون وحلته الرثة يدلان على أنه بريطانى ، كما كانت عينه الرماديه الداكنة تثير فى سيلاس شعوراً بالبرودة . وكان لا ينفك يحرك فمه من ناحية إلى أخرى ويديره أثناء النقاش الذى كان يدور همسا . وقد بدا للأمريكى أكثر من مرة أن الإشارات تتجه إلى غرفته ، لكن الذى استطاع أن يتحقق منه بعد الإنصات الدقيق هو هذه العبارات التى نطق بها الرجل الإنجليزى بصوت عال كأنما كان يرد على تمنع أو معارضة .

«لقد درست ذوقه ومزاجه دراسة وافية،وأكرر القول مرة بعد مرة أنك المرأة الوحيدة من نوعها التى أستطيع الحصول عليها . . . »

وعلى أثر ذلك تنهدت مدام زفيرين وبدت كأنها تستسلم له كما يستسلم الإنسان لشخص له عليه سلطان لا يحد .

وفى عصر ذلك اليوم سد المرقب تماما ، فقد وضع نضد أمامه من الناحية الأخرى ، وبينا كان سيلاس لا يزال يندب حظه ويعزو ذلك إلى البريطانى اللعين أقبل البواب يحمل إليه خطابا بخط نسائى ، مكتوبا بلغة فرنسية غير دقيقة ، وليس

عليه توقيع ، وفيه دعوة حارة للأمريكى الشاب بأن يحضر إلى أحد الملاهى فى الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم . وتعارض فى ذهنه الفضول والحياء ، ونشبت بينهما معركة حامية فى قلبه ، تنتصر فيها العفة تارة وتتغلب الجرأة تارة أخرى ؛ وكانت النتيجة أن ذهب مستر سيلاس سكود امور قبل العاشرة بكثير إلى الملهى وأدى أجر الدخول وهو يشعر أنه مقدم على مغامرة شيطانية لا تخلو من روعة .

وكانت حفلة راقصة مقنعة صاخبة ، وفى أول الأمر حيرت الأضواء والزحام المخاطر الصغير ، ثم جرفه التيار فاندفع فيه، وخاض غماره بأكثر مما فيه من رجولة ، وشعر أنه على استعداد لمواجهة الشيطان نفسه ، واختال فى الملهى كأنه فارس ، وبينما هو على هذه الحال إذ لفتت نظره مدام زفيرين وهى منهمكة مع الإنجليزى فى زاوية خلف أحد الأعمدة ، وتغلبت عليه فى الحال حاسة القطط فى استراق السمع ، فتقدم قريباً من خلفهما حتى كان يستطيع سماعهما ، فسمع البريطانى يقول «ها هوذا الرجل ، ها هوذا صاحب الشعر الأصفر الذى يتحدث إلى الفتاة ذات الثوب الأخضر» .

ورأى سيلاس شابا أنيقاً قصير القامة كان بلا ريب موضوع المحادثة ، وقالت مدام زفيرين: «حسناً سأفعل مافى وسعى ؛ لكن تذكر أننى قد أخدع فى هذا الأمر كما يخدع فيه أى إنسان غيرى ...» ، فأجابها رفيقها: «صه أنا المسئول عن النتيجة، ألم أخترك من بين ثلاثين ، إذهبى ، لكن خذى حذرك من الأمير فلست أدرى أية حادثة مشئومة قد جاءت به الليلة إلى هذا المكان كأن ليس هناك عشرات الملاهى فى باريس أحق بزيارته من هذا الملهى الصاخب ورواده من الطلبة والمهرجين . أنظرى إليه حيث يجلس كأنه إمبراطور متحكم لا أمير فى أيام عطلته . ومرة أخرى حالف سيلاس الحظ ، فقد رأى شابا قوى الجسم وسيم الوجه ظريفاً مهيباً يجلس إلى مائدة مع شاب آخر أنيق أصغر منه بعدة سنين يخاطبه فى إجلال ظاهر . وكان لفظ الأمير يطرق سمع سيلاس وهو الرجل الذى لم يتعود من قبل سماع الحديث عن

الأمراء ، ويجعل لمنظر الشخص الذى يلقب بهذا اللقب أثره المألوف فى عقله . وقد ترك مدام زفيرين ورجلها الإنجليزى واتخذ طريقه خلال الحفل ، واقترب من المنضدة التى شرفها الأمير ورفيقه بالجلوس إليها .

وكان الأمير يقول « أقول لك ياجير الدين إن هذا العمل جنون ، لقد اخترت أخاك لهذه المهمة الخطرة وعليك أنت أن تراقب سلوكه . لقد رضى أن يتأخر أياماً فى باريس وكان هذا جرأة منه إذا ما نظرنا إلى أخلاق الرجل الذى عليه أن يلقاه ، بعد أن لم يبق بينه و بين سفره أكثر من ثمان وأربعين ساعة ، ولم يبق بينه و بين محاولته الحاسمة أكثر من يومين أو ثلاثة أيام . أسألك هل هذا مكان يليق أن يقضي فيه وقته ؟ لقد كان حقاً عليه أن يقضى هذا الوقت فى التدرب على العمل ، وأن ينام الساعات الطوال ، و يقوم بجولات معتدلة على قدميه ، و يتبع نظاماً صارماً فى غذائه ، لا يدخل فيه النبيذ أو الخمور . هل يعتقد الكاب أنا كلنا نهزل ؟ إن الأمر جد يا جيرا لدين لا هزل » . وأجاب الكولونيل جيرا لدين : « إنى أعرف الشاب معرفة جيدة ولا أجد حاجة للتدخل فى أمره ، ولا أجد ما أخشاه . إنه أشد حذراً مما تظن ، وله روح لا تقهر ، ولو كان الأمر أمر سيدة لما قلت كل هذا ، ولكنى أكل إليه أمر الرئيس والخادمين دون أن أخشى قط شيئاً » .

وأجاب الأمير : « يسرنى أن أسمع منك ذلك ، ولكن ضميرى غير مستريح ، واعلمى أن الخادمين جاسوسان يتقنان التجسس كل الإتقان . ألم ينجح هذا الشرير حتى الآن ثلاث مرات فى الهرب من الرقابة وقضاء ساعات طويلة فى أمور خاصة لا بد أنها خطيرة ؟ ولو كان الذى يقتفى أثره هاوياً غير محترف لما وقف على أثره ، ولكن عدم اهتداء رودلف وجيروم عليه كان بلا شك عملا متعمداً مقصوداً ، وما من شك فى أن الذى أضلهما رجل لديه من الأسباب القوية والوسائل غير العادية ما يمكنه من تضليلهما .

وأجاب جيرا لدين وفى نغمته ما يشعر بالامتعاض : « أعتقد أن الأمر أصبح الآن بينى و بين أخى » .

فأجاب الأمير فلوريزل : « إنى أسمع بذلك يا كولونل جيرا لدين ، وحسبى الآن لهذا السبب نفسه أن تكون على استعداد لقبول نصائحى ، إن هـــذه الفتاة ذات الرداء الأصفر تحسن الرقص» .

واتجه الحديث إلى التوافه العادية التى يُتحدث عنها فى ملهى فى باريس أيام الحفلات الراقصة. وتذكر سيلاس أين هو ، وأدرك أن موعد ذهابه إلى أداء مهمته قد حان ، وكان كلما فكر فى أمره قل ميله لهذه المهمة . وفى هذه اللحظة ابتدأت الجماهير تدفعه ناحيــة الباب تحمله دون مقاومة حتى تركته فى ركن طرق أذنيه فيه لساعته صوت مدام زفيرين ، وكانت تتكلم الفرنسية مع الشاب ذى الشعر الأشقر الذى أشار إليه البريطانى الغريب منذ نصف ساعة وتقول له :« إنى أجازف بسمعتى ، ولـكن عليك فقط أن تذكر ذلك للبواب ، وسيأذن لك بالدخول على الفور » .

واعترض رفيقها قائلا : « ولـكن لم تتحدثين عن مسألة الدين هذه ؟» .

فأجابت : « ويحك أتعتقد أنى لا أعرف فندقى ؟ »

ومضت وهى متعلقة بذراع رفيقها ، وأذكر هذا سيلاس موعده ، وقال فى نفسه « لعلى بعد عشر دقائق أكون سائراً مع سيدة فى مثل جمال هـذه السيدة ، وقد تكون أحسن منها ملبساً ، وقد تكون سيدة نبيلة وربما كانت ذات لقب » .

ثم تذكر ما كان فى الخطاب من خطأ فى الهجاء ووجم قليلا ، لـكنه قال لنفسه « ربما كتبته خادمتها» .

وكان قد بقى على الساعة المحددة بضع دقائق ، فأخذ قلبه يدق بسرعة مزعجة . لـكن الذى خفف وقعه عليه أنه ليس من المحتم أن يظهر نفسه ، وكانت تمتزج عنده الجرأة والجبن فى آن واحد ، واتخذ طريقه إلى الباب عامدا فى هذه المرة ، مزاحما

معارضاً تيار الجمع الذى كان يتحرك فى إتجاه مضاد لاتجاهه ، ولعل هذه المقاومة قد أنهكت قواه ، أو لعل الذى كان يسيطر على ذهنه وقتئذ أنه لو استمر فى نفس الاتجاه بضع دقائق لاختلفت حالته وتبدل هدفه . وهناك إبتعد مرة ثالثة ولم يقف إلا بعد أن وجد نفسه فى مكان يستطيع أن يختبئ فيه على بعد أمتار قليلة من مكان اللقاء .

وهنا اضطربت نفسه ودعا ربه مرات عدة أن يساعده ، فقد تربى سيلاس تربية دينية ولم يكن لديه الآن أقل رغبة فى اللقاء المرتقب ، ولم يمنعه من الهرب إلا خوف سخيف أن يظن الناس فى رجولته نقصاً . وتغلب هذا الشعور على كل الدوافع الأخرى فحال بينه و بين الهرب و إن لم يحمله على التقدم . ومرت عشر دقائق بعد الزمن المحدد ، و بدأ يستولى عليه القلق ، ودار ببصره نحو ركن البناء ، ولم ير أحداً فى مكان المقابلة ، وجال بخاطره أن كاتبة الرسالة المجهولة قد قلقت وانصرفت ، وامتلأ الآن قلبه بالشجاعة بمقدار ما امتلأ قبل بالجبن ، و بدا له أنه مادام قد جاء إلى مكان اللقاء مهما كان متأخراً فلا يمكن أن يتهم بالجبن ، وابتدأ الآن يظن الأمر كله مزاحاً ، وأخذ يثنى على مهارته وقدرته على كشف المؤامرة و إحباط غرض مدبريها .

وتقدم بجرأة من ركنه مسلحاً بهذه المشاعر ، ولكنه لم يكد يتقدم خطوتين حتى وضعت يد على ذراعه . واستدار فرأى سيدة مهيبة الطلعة تلوح عليها ملامح الفطنة لكن نظرتها لم يكن فيها شىء من القسوة وقالت له :

« أرى أنك شديد الثقة بأنك قاهر للنساء ، فأنت تجعلهن ينتظرنك بدل أن تنتظرهن ، لكننى كنت مصممة على لقائك . و إذا ما نسيت المرأة نفسها وخطت هى الخطوة الأولى فإنها تكون قد خلفت منذ زمن طويل كل كبريائها المزعوم » .

وأخذ سيلاس بعظمة مراسلته وجاذبيتها ووقوعها فجأة فى حبه ، ولكنهما ما لبثت أن جعلت الهدوء يعاوده ، فقد كانت ظريفة رقيقة فى سلوكها ، أغرته بهذا السلوك على أن يمزح و يداعب ، ثم مدحته وأسرفت فى مديحه ، وما هى إلا لحظات قضاها فى

اللهو والشراب حتى ظن أنه عاشق ولهان وأخذ يجهر بهذا الحب بأقوى الألفاظ .

ثم قالت : — « يا لله ! لا أدرى هل يحق لى ألا آسف على هذه اللحظة رغم ما يفيض به قلبى من السرور حين أستمع إلى كلماتك . لقد كنت قبلا أقاسي الآلام وحدى ، أما الآن أيها المسكين فسنتقاسمها معاً . ولست صاحبة الأمر على نفسى ، أستطيع أن أدعوك لزيارتى فى منزلى ، إذ تراقبنى عيون غيورة . دعنى أرى ، إننى أكبر منك رغم أنى أضعف ، وإنى وإن كنت أثق بشجاعتك وتقديرك لا بد أن أستعين بتجاربى فى الحياة على ما فيه الخير لى ولك . أين تقيم ؟ »

فأخبرها أنه يسكن فى حجرة مفروشة فى فندق ، وذكر اسم الشارع ورقم الفندق ، وظهرت كأنما تفكر بضع دقائق تفكيراً مجهداً ثم قالت أخيراً :

« أرى أنك ستكون وفياً ومطيعاً . أليس كذلك ؟ » فأكد لها سيلاس شدة إخلاصه ووفائه ، فأكملت حديثها بابتسامة مشجعة « غداً مساء إذن يجب أن تبقى فى غرفتك ولا تغادرها بعد الظهر ، فاذا ما جاءك أصدقاء فاصرفهم فى الحال ، وانتحل لهم ما يتراءى لك من الأعذار . إن الباب يغلق فى العاشرة على ما أظن ؟ »

فأجاب سيلاس : « بل قبيل الحادية عشرة »

فتابعت حديثها قائلة : « فى الحادية عشرة إلا ربعاً اترك المنزل ، صح بالباب أن يفتح ، وتأكد أنك لا تحادث البواب إذ ربما أفسد ذلك كل شيء . واذهب مباشرة إلى الركن حيث تتقابل حدائق لوكسمبرج والشارع ، وهناك ستجدنى فى انتظارك . وأنا واثقة من أنك ستعمل بنصيحتى بقضها وقضيضها ، واعلم أنك إذا ما خالفت أية نقطة صغيرة فيها فإنك ستسبب الكرب الشديد لامرأة كل ذنبها أنها رأتك وأحبتك » .

فأجاب سيلاس : « لا أدرى أية فائدة من كل هذه التعليمات . . . »

فصاحت قائلة : « أعتقد أنك بدأت تعاملنى معاملة من له حق السيادة على . . » .

ونقرت بمروحتها على ذراعة ثم قالت : « صبراً ، صبراً ، سيأتى ذلك على مر الزمن . فإن المرأة تحب أن تطاع أولا ، وإن كانت فيما بعد تجد السعادة فى أن تطيع . بالله افعل ما طلبته إليك وإلا فلن يكون لى بك شأن » .. وأضافت بلهجة من رأى من فوره صعوبة جديدة : « حقاً ، إننى أفكر فى الأمر الآن . لقد وجدت خطة أحسن من الخطة السابقة أقصى بها الزائرين : قل للبواب ألا يدخل عليك أحداً إلا شخصاً قد يحضر فى تلك الليلة مطالباً بدين ، وتكلم بشىء من التأثر كأنك تخشى المقابلة حتى يحمل كلامك محمل الجد »

فقال ولم تخل لهجته من قليل من الإستياء : « أظنك تستطيعين أن تثقى أن فى وسعى أن أحمى نفسى من الدخلاء »

فأجابت بفتور : « هذه هى الطريقة التى أحب أن يتم بها اللقاء . فأنا أعرف أنكم أيها الرجال لا تهتمون بسمعة النساء »

وخجل سيلاس وأطرق برأسه قليلا لأنه كان مزهوا أمام معارفه بالخطة التى دبرها من قبل .

وأضافت قائلة : « وأهم ما يجب عليك ألا تتحدث إلى البواب فى أثناء خروجك »

فقال : « ولماذا ؟ إن هذا يبدو لى أقل أهمية من جميع ما تلقيت من أوامرك »

فأجابت : « لقد كنت تشك فى حكمة بعض أوامرى الأخرى ، وأنت الآن تراها جد واجبة . صدقنى ، إن لهذا أيضا فائدة . ستدرك ذلك فيما بعد ، وماذا أظن أنا فى عواطفك إذا رفضت مثل هذه التوافه فى مقابلتنا الأولى ؟ . »

وأتعب سيلاس نفسه فى البحث عن تفسيرات واعتذارات ، وفى خلال ذلك نظرت إلى الساعة وضربت يداً بيد فى صيحة مكبوتة « بالله . إن الوقت متأخر ، ليس لدى لحظة أضيعها ، ويل لنا معشر النساء ، إننا عبيد . ماذا بقى لى أن أخاطر به من أجلك ؟ »

و بعد أن أعادت تعليماتها ومزجت ملاحظاتهـــا بالنظرات الساحرة ودعته واختفت بين الجموع الحاشدة .

وظل سيلاس طوال اليوم الثانى كله يداخله الشعور بأهمية اللقاء . لقد تأكد الآن أنها إحدى النبيلات . ولما حل المساء أطاع أوامرها بحذافيرها ، وكان فى منعطف حدائق لوكسمبرج فى الساعة المحددة . ولم ير هناك أحداً ، فانتظر نصف ساعة تقريباً وأخذ يتفرس فى وجه كل من يمر أو يتسكع قرب المنطقة ، بل زار كل الأماكن المجاورة للشارع ، ومر بكل أسوار الحديقة ، لكنه لم يجد نبيلة جميلة ترمى نفسها بين زراعيه .

وأخيراً بدأ يعود على كره منه إلى الفندق ، وتذكر وهو فى الطريق الكلمات التى سمعها من حديث مدام زفيرين والشاب الأشقر ، فشعر بمزيد من القلق .

وقال فى نفسه : « يبدو أن كل إنسان يكذب على بوابنا . »

ودق الجرس ، وفتح الباب ، وجاء البواب بملابس النوم ليضىء له الطريق وسأله « هل خرج ؟ » فأجاب سيلاس بشىء من الحدة لأنه قد ساءه أن رجاءه لم يتحقق « من تقصد ؟ »

فواصل البواب حديثه قائلا . « لم أره وهو يخرج ، لكنى أثق أنك دفعت له ما عليك . إننا لا نهتم فى هذا المنزل بأن يكون عندنا نزلاء لا يستطيعون أداء ما عليهم »

فسأله سيلاس فى غلظة « من تقصد ؟ إننى لا أستطيع أن أفهم شيئا من هذا الخليط . »

فأجاب الآخر : « أقصد الشاب القصير الأشقر الذى جاء يطالب بدينه ، إنه هو الذى أقصده ، ومن عساى أن أقصده غيره ، وكان على أن أطيع أمرك بألا أدخل غيره ؟ » قال سيلاس : « رحمتك يا الله ، طبعا إنه لم يجئ »

فصاح البواب. « إنى أعتقد ما أعتقده » : وحرك لسانه فى شدقه حركة تنم عن الخبث .

فصاح سيلاس . « إنك وغد سافل » ، وشعر أنه قد أظهر كثيراً من الغلظة وأحس فى الوقت نفسه بكثير من الأخطار تتهدده ، فاستدار ومضى يصعد الدرج مسرعا .

فصاح البواب . « ألا ترغب فى ضوء »

لكن سيلاس أسرع أكثر من ذى قبل ، ولم يقف حتى كان قد وصل الطابق السابع ، ووقف أمام بابه ، وهناك إنتظر لحظة ليسترد أنفاسه .

وجالت بخاطره أسوأ النذر ، وشعر بالخوف عند دخول الغرفة .

ولما دخلها فى آخر الأمر ارتاح إذ وجدها مظلمة لم تمس ما فيها يد ، وتنفس نفساً عميقاً حين وجد نفسه فى غرفته سالما ، واعتزم أن تكون هذه آخر حماقاته كما كانت أولها . وكانت عيدان الثقاب على منضدة صغيرة بجانب السرير ، و بدأ يشق طريقه فى هذا الإتجاه ، ولكنه حين تحرك بدأت شكوكه تتغلب عليه مرة أخرى ؛ ولقد سر حين تعثرت قدمة فى شى ولم يجده إلا كرسيا . وأخيراً لمس الستائر ، وعرف من موضع النافذة الذى كان ظاهراً قليلا أنه لابد بجانب السرير ، وأن ليس عليه إلا أن يعتمد عليه ليصل إلى المنضدة التى يبغيها .

ومد يده ، لكن ما لمسته لم يكن غطاء فحسب بل كان تحته شىء بهيئة رجل آدمية ، وجذب سيلاس يده ، ووقف لحظة مذهولا ، وقال فى نفسه :

« ماذا ؟ ماذا يمكن أن يكون هذا ؟ » وأرهف السمع لكن لم يكن هناك صوت أنفاس ، ومد أطراف أصابعه مرة أخرى بجهد كبير إلى الموضع الذى لمسه قبلا ، ولكنه فى هذه المرة قفز نصف ياردة ووقف ينتفض وقد جمد فى موضعه من الرعب ، فقد كان هناك شىء فى السرير . ترى ماذا يكون ؟ لم يكن يدرى ، لكن هناك شيئا بلا ريب .

ومضت بضع ثوان قبل أن يستطيع التحرك ، ثم عثر على عيدان الثقاب بوحى غريزته ، وأشعل شمعة وظهره إلى السرير ، ولما توهج اللهب استدار حوله ببطء ،

ونظر إلى الشيء الذى خاف أن يراه . لقد تحققت أسوأ ظنونه ، ولم يبق لديه شك ، فقد كان الغطاء مشدوداً فوق الوسادة ، يظهر معارف آدمى يرقد دون حراك . ولما اندفع وأزاح الغطاء وجد الشاب الأشقر الذى رآه فى الملهى فى الليلة السابقة ، وعيناه مفتوحتان ، ولكنه لا ينظر إلى شيء ، ووجهه منتفخ مسود ، والدم ينحدر من منخاريه .

وصرخ سيلاس وهو يرتعش ، ووقعت منه الشمعة ، وسقط على ركبتيه إلى جانب السرير .

وأفاق سيلاس مما اعتراه من ذهول من جراء اكتشافه المروع على صوت دق متواصل على الباب ، ومضت بضع ثوان قبل أن يذكر موقفه ، ولما هم بمنع أى إنسان من الدخول كان قد تأخر فوق ما يجب ، إذ رأى الدكتور نويل فى ثوب نوم طويل يحمل مصباحا يضيء محياه ويتلوى فى مشيته ، وفتح الباب ببطء وتقدم إلى منتصف الحجرة .

وبدأ يقول : « أظن أنى سمعت صيحة وخفت ألا تكون بخير ، فلم أتردد فى هذا التطفل »

وظل سيلاس ووجهه ممتقع وقلبه يدق فى خوف واقفاً بين الطبيب والسرير ، لكنه لم يطاوعه صوته فيجيب بكلمة واحدة .

وتابع الطبيب حديثه : «إنك فى الظلام ، ومع ذلك فلم تبدأ حتى فى الاستعداد للنوم . إنك لن تستطيع أن تجعلنى أكذب عينى ، وإن وجهك لينبئ بجلاء أنك بحاجة إما إلى صديق أو طبيب فأيهما تريد ؟ دعنى أجس نبضك فإن هذا كثيراً ما يدل دلالة صادقة على حالة القلب » .

وتقدم إلى سيلاس وقد تقهقر أمامه إلى الوراء ، وأراد إمساكه من معصمه ، لكن العبء الذى كان واقعا على أعصاب الأمريكى الشاب كان من الثقل بحيث

لايستطيع المقاومة ، فتحاشى الطبيب بحركة مضطربة ، وألقى بنفسه على الأرض واندفع فى نوبة من البكاء .

وما أن رأى الدكتور نويل الرجل الميت على السرير حتى اسود وجهه وأسرع عائداً نحو الباب الذى كان قد ترك بعضه مفتوحا فأغلقه بسرعة بالمفتاح مرتين .

وصاح بسيلاس فى صوت رفيع « قم . ليس هذا وقت البكاء . ماذا صنعت ؟ وكيف وجد هذا الجسد فى غرفتك ؟ تكلم بصراحة إلى شخص ربما كان ذا فائدة لك . هل تظننى جئت لأقضي عليك ؟ أم تظن هذه القطعة من الجسد الميت التى على وسادتك تغير شعور العطف الذى بعثته فى نفسى ؟ أيها الشاب الساذج ، إن الفعل الذى يراه القانون الأعمى غير العادل جرما شنيعاً مفزعا لايكون له قط ذلك الأثر فى عين من يحب ، ولو انى رأيت صديقى الحميم يعود إلىَّ غارقا فى بحر من الدماء لما تغيرت عواطفى نحوه . انهض ، إن الخير والشر أوهام باطلة ، ومهما كانت ظروفك فهناك شخص إلى جانبك سيساعدك إلى النهاية »

وتشجع سيلاس بهذه العبارات فوقف على قدميه ونطق بصوت متهدج وأعانه الطبيب بأسئلته فاستطاع آخر الأمر أن يفضي إليه بكل الحقائق ، لكنه أغفل ذكر الحديث الذى دار بين الأمير وجير الدين ، لأنه لم يفهم إلا قليلا من مرماه ولم يدرك أن له أية صلة بالكارثة التى حلت به .

وصاح الدكتور نويل . « بالله لقد وقعت فى أيدى أخطر رجال فى أوربا أيها الشاب المسكين ! أى شرك نصب لك فوقعت فيه ببساطتك ؟ وفى أية هاوية تردت قدمك غير الحاذرة ؟ هذا الرجل الإنجليزى الذى رأيته مرتين ، والذى أعتقد أنه دبر المؤامرة لحمتها وسداها ، هل تستطيع أن تصفه ؟ هل كان شابا أو شيخا قصيراً أو طويلا ؟ »

لكن سيلاس لم تكن له فى تلك اللحظة عين بصيرة فلم يستطع أن يذكر إلا عموميات تافهة لايستطاع إدراكه بها .

وصاح الدكتور فى غضب : « إنى سأجعل هذا الأمر جزءاً من منهاج الدراسة فى كل المدارس ! ما فائدة العينين واللسان إذا لم يستطع بها رجل أن يلاحظ أو يذكر ملامح عدوه ؟ ! لو أننى أنا الذى أعرف كل مجرمى أوربا قد رأيته لاستطعت التعرف عليه ، ولا تخذت ذلك سلاحا أستطيع به حمايتك . ثمّ هـذه المقدرة فيك مستقبلا أيها الشاب المسكين فقد تجدها ذات فائدة كبيرة لك »

فأجاب سيلاس: « مستقبلا ؟ ! أى مستقبل بقى لى إلا حبل المشنقة ؟ »

وقال الدكتور : « إن الشباب عصر الجبن ، وإن متاعب الرجل لتبدو فى عينيه أحلك مما هى فى الحقيقة ! إنى رجل شيخ لكنى لا أفقد الأمل قط . . »

فقال سيلاس : «وهل أستطيع أن أروى مثل هذه القصة لرجال الشرطة ؟ »

فأجاب الدكتور : « بالتأكيد لا ! إنى أرى الآن من المكيدة التى دبرت لإيقاعك أن حالتك لا أمل فيها من هذه الناحية ، وستكون فى عينى السلطات القصيرة النظر ستكون دون جدال — أنت المجرم ، وتذكر أننا لا نعلم إلا جزءاً من المؤامرة ولا شك أن المدبرين الآثمين قد دبرا ظروفا كثيرة أخرى ستبدو إذا ما شرع رجال الشرطة فى التحقيق ، وتساعد على الصاق التهمة بك أكثر مما تساعد على براءتك »

فصاح سيلاس : « لقد ضعت حقا إذن »

فأجاب الدكتور نويل : « لم أقل هذا فإننى رجل حذر »

فاعترض سيلاس وأشار إلى الجثة : « لكن أنظر إلى هذا ، هذا الشىء الذى على سريرى ، إنى لا أستطيع له تفسيراً ، ولا أستطيع التخلص منه ، ولا أقدر أن أنظر إليه دون أن ينتابنى الفزع »

فأجاب الدكتور : « الفزع ؟ كلا إن هذا الساعة إذا ما سقطت من مكانها وتحطمت لم تعد فى عينى إلا قطعة من آلة عجيبة خليقة بأن أبحثها بملقط ، والدم إذا ماصار بارداً راكداً لم يعد دما آدميا ، واللحم إذا مابرد لم يعد ذلك اللحم الذى نبغيه

فى أحبابنا ونحترمه فى أصدقائنا . لقد فقد الجمال والجاذبية والرعب لما فقد روحه المنعشة. عود نفسك أن تنظر إليه فى هدوء وسكينة ، وإذا ما نجحت خطتى فقد تضطر إلى أن تعيش بضعة أيام بجوار ذلك الذى يخيفك الآن كثيراً »

فصاح سيلاس: «خطتك؟ ماهى؟قل لى بسرعة يادكتور ، فليس لدىّ من الشجاعة مايجعلنى أبقى حيا »

فاستدار الدكتور نويل دون أن يجيب، وبدأ يفحص الجثة ثم تمتم قائلا : «ميت تماماً ، وكما قدرت فإن جيوبه خالية ، نعم والأسم منزوع من القميص . لقد أدوا عملهم بعناية وحيطة ، ومن حسن الحظ أنه قصير القامة »

وتابع سيلاس هذه الكلمات فى قلق بالغ ، وأخيراً فرغ الطبيب من فحصه ، فأخذ كرسياً وخاطب الأمريكى الشاب بابتسامة وقال :

« منذ دخلت هذه الحجرة،ورغم أن أذنىّ ولسانى كانت كلها غير معطلة، لم أدع عينى تتكاسلان ؛ ولقد لاحظت منذ قليل أن فى ركن الحجرة شيئا ، ذلك الشىء الذى يحمله بنو وطنك إلى أقطاب المعمورة ، وأعنى به هذه الحقيبة الضخمة . ولقد كنت حتى هذه اللحظة لا أفهم قط فائدة مثل هذا الحمل الثقيل ، لكنى بدأت الآن أدرك فائدته ، فإنى أرى بوضوح أن الغرض من مثل هذا الصندوق أن يحتوى جثة آدمية »

فصاح سيلاس . « لاشك فى أن هذا ليس وقت المزاح »

فأجاب الطبيب : « إنى جاد فيما أهدف إليه وإن كنت أعبر عنه بشىء من الفكاهة ، وأول ما يجب أن نعمله ياصديقى الصغير أن نخرج من هذه الخزانة كل ماتحتويه »

وأطاع سيلاس أمر الدكتور نويل ووضع نفسه تحت تصرفه، فأخرج من الصندوق كل محتوياته ، فصارت كوما كبيراً على الأرض ، ثم أمسك بجثة القتيل من قدميها وأسند الطبيب الكتفين ، ورفعاها عن السرير وثبتاها بعد جهد فى الصندوق الفارغ

ثم أغلقت الحقيبة على ما فيها من متاع غريب، وربطها الطبيب بيده بينا كان سيلاس منهمكا فى وضع ما أخرج منها فى الأدراج والخزانات.

وقال الدكتور. « والآن قد خطونا الخطوة الأولى فى طريق خلاصك ، وفى الغد — أو على الأصح اليوم — لابد أن تكون مهمتك هى إزالة شكوك البواب ، ذلك بأن تؤدى له كل ماله عليك ، ودع لى وأنت مطمئن تدبير مايلزم لإنهاء المسألة بخير. والآن اتبعنى إلى غرفتى أعطك منوما قويا ولكن لاخطر منه ، لأنك فى حاجة إلى الراحة مهما يكن ما يطلب إليك فعله.

وكان اليوم التالى أطول يوم فى ذاكرة سيلاس ، وبدا كأنه لن ينتهى ، وقد أنكر نفسه من أصدقائه. وجلس فى ركن وعيناه مثبتتان على الحقيبة الضخمة وهو غارق فى أفكاره الحزينة. وانقلبت الآية الآن عليه إذ لاحظ أن المرقب قد فتح، وأنه مراقب دائماً من حجرة مدام زفيرين ، وأحزنه ذلك حتى اضطر فى النهاية أن يسد الفتحة من ناحيته. فلما استراح من المراقبة قضى جزءاً كبيراً من الوقت يذرف الدمع ويدعو الله.

وقرب المساء دخل الدكتور نويل الغرفة يحمل فى يده مظروفين دون عنوان أحدهما ضخم أما الآخر فيبدو أن ليس فيه خطاب ، وقال وهو يجلس إلى النضد :

«سيلاس ، لقد حان الوقت لأشرح لك خطتى ، فغداً صباحا فى ساعة مبكرة يعود الأمير فلوريزل — أمير بوهيميا — إلى لندن بعد أن أنفق بضعة أيام فى الحفلات الراقصة بباريس ، ولقد كان من حظى من وقت قريب أن أؤدى إلى الكولونيل جيرالدين رئيس اصطبلاته خدمة من الخدمات العادية التى تبيحها لى مهنتى ، والتى لايستطيع أى الطرفين أن ينساها. ولست بحاجة إلى أن أشرح لك طبيعة الظروف التى ألجأته إلىّ ، وحسبى أن أقول إننى قد صار لى من المعرفة به مايجعله على استعداد لخدمتى فى أى ظرف ملائم. ولقد كان من الضرورى لك أن تصل إلى

لندن دون أن تفتح الحقيبة . وكان يبدو أن إدارة الجمارك عقبة كأداء فى هذه السبيل ، لكنى تذكرت أن متاع شخصية محترمة كالأمير لا يفحصها ضباط الجمارك مجاملة له، وقد تحدثت إلى الكولونيل جيرالدين فى أن تضم الحقيبة إلى متاع الأمير ونجحت فى الحصول على موافقته ، فغداً إذا ذهبت قبل السادسة الى الفندق الذى يقيم فيه فإن متاعك سيمر كأنه جزء من متاعه ، وأنت نفسك سترحل كأحد أفراد حاشيته .

« يبدو لى وأنت تتكلم كأنى قد رأيت فعلا الأمير جيرالدين ، بل قد سمعت بعض المناقشة التى دارت بينهما فى ذلك المساء فى الملهى »

« ذلك أمر محتمل فإن الأمير يحب الاختلاط بكل الطبقات . وإذا ما وصلت إلى لندن فإن المسألة توشك أن تنتهى ، ففى هذا الظرف المنتفخ خطاب لا أستطيع كتابة العنوان عليه ، أما الظرف الآخر فإن فيه مكان المنزل الذى يجب أن تحمل إليه الصندوق ، وهناك يؤخذ منك ولن يشغلك أمر ما بعد ذلك أبدا » .

فقال سيلاس : « ياالله . أود لو صدقتك ، لكن كيف أصدقك ؟ إنك تبعث فى نفسى بريقا من الأمل ، لكنى أسألك هل يستطيع عقلى أن يفهم مثل هذا الحل الغريب ؟ كن أكثر كرما ، ودعنى أفهم أكثر من ذلك كنه ما تقصد » .

وبدا كأن الطبيب قد أثر فيه هذا الرجاء وحز فى نفسه فقال :

« بنى . إنك لا تعرف مقدار ما فى طلبك هذا من الصعوبة ، لكنى سأجيبك إليه ، وسيكون من الغريب أن أرفض لك هذ الطلب بعد أن قدمت لك كل هذا . اعلم إذاً أنى رغم مظهرى الهادىء الآن ، ورغم ما يبدو علىَّ من أنى رجل مقتصد وحيد عاكف على الدرس ، كان اسمى عندما كنت أصغر منى الآن يرن بين أخبث شياطين لندن وأشدهم خطرا . وبينا كنت فى مظهرى الخارجى موضعا للاحترام والتقدير ، كانت قوتى الحقيقية فى علاقاتى السرية المريعة الإجرامية . وإنى أرسلك الآن إلى واحد من أولئك الذين كانوا يأتمرون بأمرى ليخلصك من حملك .

لقد كان هؤلاء رجالا من مختلف الأمم والبلدان ، يضمهم جميعا قسم ملزم ، و يعملون لغاية مشتركة . وكان عمل الجماعة هو القتل ، وأنا الذى يخاطبك الآن ، ورغم مايبدو علىّ من البراءة ، كنت زعيم هذه الزمرة المروعة » .

فصاح سيلاس : « ماذا ؟ أو قاتل أنت ؟ أأنت رجل كانت صناعته القتل ؟ هل أستطيع أن أضع يدى فى يدك ؟ وهل أنا محق فى قبول خدمتك أيها الشيخ المجرم . هل تتآمر علىّ مع شبابى وحزنى ؟ » .

وضحك الدكتور فى مرارة وقال: «إن من الصعب إرضاءك يامستر سكودامور ، لكنى الآن أخيرك بين مصاحبة القاتل أو القتيل ، فإن كان ضميرك حيا لايستطيع قبول مساعدتى فقل ذلك ، وسأغادرك فى الحال ، وفى وسعك منذ الآن أن تتصرف فى الصندوق وما يحتويه بما يتفق وضميرك الحى » .

فأجاب سيلاس : « إنى آسف . كان يجب أن أذكر كيف عرضت فى كرم أن تحمينى ، حتى قبل أن تقتنع ببراءتى ، و إنى ما زلت مستمعاً إلى نصائحك شاكرا لك فضلك » .

فأجاب الطبيب : « هذا حسن ، وأرى أنك بدأت تتعلم بعض دروس التجربة » .

فأتم الأمريكى كلامه قائلا : «وفى نفس الوقت مادمت قد اعترفت بأنك تعودت مثل هذه الأعمال المزعجة ، وما دمت تقول إن الرجال الذين توصيهم بى كانوا أعوانك وأصدقاءك ، فهلا تستطيع نقل الصندوق بنفسك وتخلصنى فى الحال من وجوده الكريه ؟ » .

فأجاب الطبيب : « بشرفى أنى أقدرك تقديراً قلبياً ؛ وإذا كنت تظن أنني لم أتدخل بما فيه الكفاية فى شئونك فإنى أعتقد مخلصا أنك مخطىء فى اعتقادك هذا ، فإما أن تقبل خدماتى كما أعرضها عليك ، و إما أن ترفضها ولا تزعجنى بعبارات الشكر التى لا فائدة منها ، لأنى لا أقدر اعترافك بفضلى أكثر من تقديرى لذكائك .

وسيأتى وقت — إذا ما نجوت لتعيش أعواما فى راحة وهدوء — تنظر فيه إلى كل هذه الأمور نظرة أخرى ، وتخجل من سلوكك فى هذه الليلة » .

ولما أتم الطبيب كلامه قام من كرسيه ، وأعاد تعليماته فى اختصار ووضوح ، وغادر الحجرة دون أن يدع لسيلاس أى وقت للسؤال .

وفى صباح اليوم التالى توجه سيلاس نفسه إلى الفندق حيث قابله الكولونيل جيرالدين بأدب ، وتخلص منذ تلك اللحظة من الخطر العاجل الذى يهدده من جراء الصندوق وما يحويه . ومضت الرحلة دون حادث رغم أن الشاب كان شديد الفزع حين سمع البحارة وحمالى سكة الحديد وهم يشكون من ثقل أمتعة الأمير ثقلا غير عادى . وسافر سيلاس فى عربة مع الخدم إذ آثر الأمير فلوريزل أن يكون مختليا بابنه . وعلى ظهر الباخرة اجتذب سيلاس انتباه صاحب السمو بما كان يبدو عليه من حزن وكآبة ، وبوقوفه يحدق فى كومة الأمتعة لأنه كان لايزال قلقا غير مطمئن على مستقبله .

وقال الأمير : « أرى شابا لا بد أن أمراً ما يحزنه » .

فأجاب جيرالدين : « هذا هو الأمريكى الذى حصلت على إذنكم فى أن يسافر فى ركابكم » .

فأجاب الأمير فلوريزل : « إنك تذكرنى بأنى كنت مقصرا فى مجاملته » وتقدم إلى سيلاس وخاطبه بلطف قائلا :

« لقد سرنى يا سيدى الشاب أن استطعت أن أنفذ الرغبة التى أبديتها لى عن طريق الكولونيل جيرالدين ، وأرجو أن تذكر على الدوام أننى يسعدنى فى أى وقت فى المستقبل أن أؤدى لك خدمة أجل من هذه » .

ثم سأل بعض أسئلة عن الحالة السياسية فى أمريكا أجاب عنهما سيلاس بتعقل وأدب .

وقال الأمير : « إنك ما زلت شابا ، ولكني ألاحظ أنك أكبر جداً مما تقتضيه سنك ، ولعل دراسات عميقة تستغرق انتباهك ، وقد يكون في قولي هذا شيء من التطفل ولعلي أتعرض لموضوع مؤلم » .

فقال سيلاس : « أن لديّ في الحقيقة سبباً يجعلني أبأس الرجال ، فلم يقع برىء في موقف محزن كالذي وقعت فيه » .

فأجاب الأمير فلوريزل : « لن أطلب إليك أن تجعلني موضع ثقتك ! ولكن لا تنس أن توصية الكولونيل جيرالدين هي جواز مرور لا يخيب ، وأنني لست فقط راغباً في خدمتك ولكني ربما كنت كذلك أكثر مقدرة من كثيرين غيري على ذلك » .

وفرح سيلاس بهذا التلطف من هذه الشخصية العظيمة ، لكن خواطره السوداء ما لبثت أن عادت إلى ذهنه ، كأن جميلا يسديه أمير إلى رجل جمهوري لا يبدد مشاغله ومتاعبه .

ووصل القطار إلى « تشارنج كرس » حيث أظهر ضباط الجمرك احترامهم لمتاع الأمير فلوريزل كالعادة . وكانت أفخم العربات في الانتظار ، ودفع سيلاس مع غيره إلى مقر الأمير ؛ وهناك بحث عنه الكولونيل جيرالدين وأعلن إليه أنه يسره إذا استطاع أن يؤدي خدمة لأحد أصدقاء الطبيب الذي يكن له كل تقدير . وأضاف : « وأرجو ألا تجد شيئا من الأواني الصينية متكسراً ، فقد أعطيت أوامر مشددة في طول الطريق بالمحافظة عليها » . ثم أمر الخدم أن يضعوا إحدى العربات تحت تصرف السيد ، وصافحه الكولونيل معتذراً بانشغاله بمتاع الأمير .

وفتح سيلاس الخطاب الذي يحوي العنوان ووجه الرجل ليمضي بالعربة إلى شارع « بوكس كورت » الذي يتفرع من شارع ستراند . وبدا كأن المكان ليس غريبا على الرجل إذ نظر مرتاعا وطلب إعادة الأوامر . وصعد سيلاس يملأ قلبه الخوف

إلى العربة الفخمة وسار فى طريقه إلى ذلك المكان . وكان المدخل إلى « بوكس كورت » أضيق من أن يتسع لدخول العربة ، فقد كان لا يتسع إلا لمرور شخص واحد . وعلى ناصية الشارع كان يجلس رجل قفز على الفور وتبادل مع السائق تحية مودة ، وفتح الخادم الباب وسأل سيلاس : « إلى رقم ٣ إن سمحت » .

وكان عسيراً على الخادم والرجل الذى كان جالسا أن يحملا الحقيبة بمساعدة سيلاس نفسه . وقبل أن توضع على باب المنزل المذكور روع الأمريكى الشاب إذ رأى جمعا من المتعطلين يلتفون حوله ، ولكنه دق الباب بأعظم ما يستطيع من مظاهر الثبات ، وأخرج المظروف الآخر لمن فتح له .

فقال هذا : « إنه ليس بالمنزل ، لكن إذا تركت الخطاب ورجعت غداً مبكراً فإننى أستطيع أن أخبرك هل تستطيع زيارته ومتى تستطيع . هل ترغب فى ترك الصندوق ؟ »

فصاح سيلاس : « بكل سرور ، ولكنه ما لبث أن ندم على تسرعه، وأعلن فى تأكيد أنه يفضل أن يعود بالصندوق إلى الفندق .

وتهكم الجمع على تردده هذا وأخذوا يرسلون وراء العربة ألفاظ السباب . وطلب سيلاس إلى الخدم وهو مجلل بالعار والفزع أن يرشدوه إلى مكان مريح هادىء قريب منهم . فأوصلوه إلى فندق كرافن ثم عادوا من فورهم وتركوه وحده مع خدم الفندق .

وكانت الغرفة الوحيدة الخالية على ما يبدو غرفة صغيرة يصعد إليها بأربعة أزواج من الدرج ، وتطل على خلف البناء . وإلى هذه الصومعة حمل الحقيبة أثنان من الحمالين وهما يتذمران ويشكوان . ولا حاجة إلى القول بأن سيلاس كان فى أعقابهما وهما يصعدان يكاد ينخلع قلبه عند كل منحن ، فإن عثرة واحدة قد تقلب الصندوق على السلم ، وتظهر محتوياته فى البهو .

ولما وصل إلى الغرفة جلس على حافة السرير ليستريح من الجهد الذى بذله ،

لـكنه ما كاد يطمئن فى مكانه حتى شعر بالخطر ، إذ رأى الحمالين بجانب الصندوق يهمان بفتحه .

فصاح سيلاس : « اتركاه ! لن أحتاج إلى شىء منه طيلة وجودى هنا » .

فزمجر الرجل : « كان أولى لك أن تتركه فى البهو إذن . هذا الشىء أثقل من الـكنيسة . فأى شىء فيه ؟ لست أدرى ، ولو أنه كله نقود لـكنت أغنى منى » .

فأعاد سيلاس الـكلمة فى هياج مفاجىء « نقود ! ماذا تعنى بالنقود ؟ ليس لدى نقود ، وأنت تتحدث كالمأفون » .

وأجاب الخدم وهم يتغامزون : «فليكن يا كابتن ، لن يمس أحد نقود فخامتك . إننى أمين المصرف ، لـكن الصندوق ثقيل ، وأود أن أشرب شيئا فى صحة فخامتكم» .

فناوله سيلاس فرنكين معتذراً إليه بأنه يضايقه إذ يعطيـه عملة أجنبية لأنه قد وصل توا إلى لندن . وأظهر الرجل شدة غضبه ، وأخذ ينظر إلى يده و إلى الحقيبة ، ثم ينقل النظر مرة أخرى من واحدة إلى أخرى ، ثم رضى أخيراً أن يغادر الحجرة .

ولقد مضى يومان على الجثة وهى مخزونة فى الصندوق ، وما كاد الأمريكى البائس ينفرد بنفسه حتى أخذ يشم الفتحات فى عناية شديدة ، لـكن الجو كان باردا ، ولذلك ظل الصندوق حافظا لسره الرهيب .

وأخذ كرسيا وجلس إلى جانبه ، ودفن وجهه بين يديه ، وطافت برأسه خيالات مزعجة ، ذلك أنه إن لم يتخلص منه بسرعة فلا بد أن يكتشف أمره قريبا ! و إذا خابت توصية الدكتور وهو وحيد فى مدينة غريبة بلا أصدقاء أو معارف فإنه يضيع حتما . وفـكر فى خططه الـكاملة فى المستقبل : لن يستطيع الآن أن يصبح البطل والخطيب فى مسقط رأسه فى بانجور ، ولن يستطيع كما توقع قبلا أن ينقل من منصب إلى آخر ومن مجد إلى مجد ، و إنه ليشق عليه أن يفقد أمله فى أن يكون رئيس الولايات المتحدة المنتخب ، وأن يترك بعده تمثـالا فى أحدث صورة فنية يزين متحف الـكابتول

في واشنجتن . ها هو ذا الآن مقيد إلى الإنجليزي الذي ثنى في الحقيبة ، ولا بد أن يتخلص منه أو يتلاشى من مسرح المجد القومي .

ولست بقادر على نقل اللغة التي استخدمها هذا الشاب عن الطبيب وعن القتيل ومدام زفيرين وخدم الفنـــدق وخدم الأمير وعن كل من كانت له صلة بحظه العاثر المروع .

ومشى خائفا ليتناول عشاءه في السابعة مساء ، لكن هذه الحجرة الصفراء غمته ، وبدت عيون الآخرين متسلطة عليه في شك ، وظل عقله في أعلى مع الحقيبة الكبيرة .

ولما جاء الندل ليقدم إليه الجبن كانت أعصابه توشك أن تنهار حتى أنه تزحزح في كرسيه فسكب بعض بقايا النبيذ على غطاء المائدة .

ولما فرغ من عشائه عرض عليه الخادم أن يقوده إلى غرفة التدخين ، ورغم أنه كان يفضل أن يعود في الحال إلى كنزه الثمين فإنه لم يكن لديه من الشجاعة ما يستطيع به أن يرفض العرض ، وأدخله الخادم إلى حجرة سوداء مضاءة بالغاز كانت — وما زالت — بهو الاستقبال في فندق كرافن .

وكان اثنان متراهنان يلعبان البليارد ومعهما مراقب ، وخيل إلى سيلاس لحظة أنه لم يكن في الحجرة سواهم ؛ لكن عينيه وقعتا في النظرة الثانية على شخص يدخن في الركن القصي وعيناه تكسبانه مظهراً في غاية الاحترام والتواضع . وأدرك في الحال أنه رأى هذا الوجه من قبل ؛ ورغم التبدل التام في الملابس فقد عرف أنه الرجل الذي كان جالسا في مدخل الشارع ، والذي ساعده على حمل الحقيبة من العربة وإليها . فاستدار الأمريكي ببساطة وحذر ولم يتوقف إلا بعد أن أغلق عليه غرفة نومه بالمفتاح والمزلاج .

وظل طيلة الليل فريسة لأبشع التخيلات ، وهو يترقب بجانب الصندوق المملوء

بالجسد الميت ، وكان ظن الخادم أن الحقيبة ملأى بالذهب يسبب له إزعاجا جديدا ، كما كان وجود الرجل الآخر — متخفيا — فى حجرة التدخين مما يؤكد له أنه أصبح مرة أخرى محور مؤامرة .

ولما مضى بعض الوقت على انتصاف الليل دفعت الشكوك سيلاس إلى أن يفتح باب غرفة نومه ويتلصص فى الممر ، وكانت أضواؤه خافتة إذ لم يكن فيه إلا مصباح واحد من مصابيح الغاز ، ورأى عن بعـد رجلا نائما على الأرض فى ملابس خدم الفندق . واقترب سيلاس من الرجل على أطراف أصابعه ، وكان راقداً على جنبـــه وظهره ، وذراعه اليمنى تخفى وجهه . وبينما كان الأمريكى منحنياً عليه أزاح النائم فجأة ذراعه وفتح عينيه ، ووجد سيلاس نفسه مرة أخرى وجهـا لوجه أمام ذلك الرجل الذى صاح فى مرح :

« مساء الخير يا سيدى » .

لـكن سيلاس احتار فى الإجابة وعاد إلى غرفته فى صمت .

وأنهكته التأملات طوال الليـل فأخذته قبل الصبـاح سنة من النوم وهو على كرسيه مسنداً رأسه إلى الصندوق . وكان نعاسه عميقا وطويلا رغم هذا الوضع غير المريح فلم يستيقظ إلا فى ساعة متأخرة على صوت طرق حاد على الباب . وهم بفتحه فوجد الخادم الذى سأله :

« أأنت السيد الذى مر أمس على البوكس كورت ؟ » .

فأجاب سيلاس وهو مضطرب بالإيجاب .

فأضاف الخادم : « فهذه الورقة لك إذن » .

وقدم إليه خطابا مغلقا . وفتحه سيلاس ووجد داخله هذه الكلمات « فى الساعة الثانية عشرة »

وقد حافظ على الموعد وحمل الصندوق أمامه خدم أقوياء ، وأدخل هو إلى غرفة فيها رجل جالس يتدفأ أمام النار وظهره إلى الباب . ولم يكف صوت هذا العدد من الأشخاص الذين دخلوا وخرجوا وصوت ارتطام الصندوق حين وضع على الأرض لأن يستلفتا انتباه الجالس ، ووقف سيلاس ينتظر فى عاصفة من الخوف حتى يهتم الجالس به و يدرك وجوده .

ومرت حوالى خمس دقائق قبل أن يستدير الرجل فى تراخ وتبدو ملامحه ، فإذا هو الأمير فلوريزل أمير بوهيميا .

وقال فى شدة : « وهكذا يا سيدى استغللت أدبى ؟ إنك تضم نفسك إلى أناس ذوى شأن ، لا لشىء ألا لتتخلص من تبعة جرائمك ، و إنى أستطيع أن أفهم على الفور حيرتك حين حدثتك بالأمس .

فصاح سيلاس : « حقا إننى برىء من كل شىء إلا من سوء الحظ » .

وأعاد على الأمير قصة مأساته كلها فى جلاء وسرعة شديدة .

فقال صاحب السمو : « أرى أنى أخطأت فما أنت إلا ضحية ؛ وبما أنى لن أعاقبك فثق أنى سأفعل كل ما فى وسعى لمساعدتك . والآن هيا إلى العمل ، وافتح الصندوق فى الحال ودعنى أشاهد محتوياته .

وامتقع وجه سيلاس وصاح : « إنى أخاف أن أنظر إلى ما فيه » .

فأجاب الأمير : « هراء ! ألم تنظر إليه من قبل . إن هذا نوع من الرقة يجب مقاومته . إن رؤية شخص عليل ما زلنا نستطيع مساعدته يجب أن تؤثر فى عواطفنا أكثر من رؤية رجل ميت اجتاز المرحلة التى نستطيع فيها معونته أو إيذاءه ، حبه أو بغضه . امتلك أعصابك يا مستر سكودا مور » . ولما رأى سيلاس ما زال مترددا أضاف : « لا أود أن أعطى صيغة أخرى لطلبى » .

وأفاق الأمريكى الشاب كأنما كان يحلم ، وحمل نفسه على كره منه شديد على

أن يفك الأربطة ويفتح قفل الحقيبة الكبيرة ، وكان الأمير واقفا إلى جانبه يراقبه في ملامح صارمة ويداه وراء ظهره . وكان الجسم متصلبا ، وتكلف سيلاس كثيرا من الجهد النفسى والعضلى ليحركه من مكانه ويكشف وجهه ، وتقهقر الأمير فلوريزل في صيحة دهشة وألم « يالله إنك لا تدرى يامستر سكودا أية هدية قاسية أهديتها إلىّ . إن هذا شاب من حاشيتى ، وأخ لأعز من أثق به من الأصدقاء ، ولقد وقع في أيدى هؤلاء الرجال القساة الغادرين في أثناء قيامه بخدمتى » وتابع كلامه كأنما كان يتحدث لنفسه : « مسكين ياجيرالدين ! ترى بأى ألفاظ أستطيع أن أخبرك بمصرع أخيك ؟ وكيف أعتذر لنفسى بين يديك ويد الله عن المشروعات الواسعة التى أدت إلى هذه الميتة الدامية غير العادية . آه يا فلوريزل ! فلوريزل ، متى تتعلم الاعتدال الذى يتفق مع الحياة البشرية ، ولا تغتر بالقوة التى تراها طوع بنانك ؟ » وصاح « القوة ! من أقل قوة ممن يظن نفسه صاحب الحول والطول ؟ إنى أنظر إلى هذا الشاب الذى ضحيت به يامستر سكودا ، وأشعر بضآلة شأن الأمراء ؟ »

وتأثر سيلاس من هذه العاطفة ، وحاول أن يتمتم بعض كلمات العزاء ، وأجهش بالبكاء . لكن الأمير أثر فيه هذا الموقف فقام إليه وأخذ بيده وقال له : « املك نفسك ، إن على كل منا أن يتعلم كثيرا ، وسنكون في غدنا خيرا منا الآن بفضل ما حدث بيننا الليلة »

وشكره سيلاس في صمت ونظر إليه نظرة من يعترف له بالجميل .

وواصل الأمير حديثه قائلا : « اكتب إلىّ عنوان الدكتور نويل على هذه الورقة » وقاده إلى نضد ، « ودعنى أنصحك إذا ما عدت إلى باريس أن تتجنب صحبة هذا الرجل الخطر . لقد مثل دور الرجل الكريم — هذا ما يجب أن أعتقده — ولو كان شريكا في قتل هذا الشاب لما بعث بالجثة ليعنى بها المجرم الحقيقى »

وأعاد سيلاس قوله في دهشة : « المجرم الحقيقى ؟ »

فأجاب الأمير : « نعم هو هذا » . وهذا الخطاب الذى أرسلته العناية الإلهية إلى يدى لم يكن موجها إلا إلى المجرم نفسه وهو رئيس « نادى الانتحار » ، فلا تحاول أن تعرف عن هذه الأمور الخطرة أكثر مما عرفت . واحمد الله على نجاتك بأعجوبة ، واترك هذا المنزل على الفور . إن لدى أموراً هامة وعلىّ أن أعد ما يلزم فى الحال لهذه الجثة المسكينة التى كانت قبل شابا أنيقا كريما .

وانصرف سيلاس بعد أن حيا الأمير فلوريزل تحيـة شكر وخضوع واعتراف بالجميل ، لكنه تأخر قليلا حتى رأى الأمير ينصرف فى عربة فاخرة لزيارة الكولونيل هندرسون أحد رجال الشرطة . ولم تمنعه مبادئه الجمهورية من أن يرفع قبعته فى رقة وحب للعربة المنصرفة . وفى نفس الليلة أخذ القطار عائداً إلى باريس .

يقول محدثى العربى : « هنا تنتهى قصة الطبيب والحقيبة الكبيرة » . وأحب أن أقول إن المستر سكود امور قد بدأ يرتقى سلم الشهرة السياسية ، وإن آخر ما وصلنى من الأخبار يدل على أنه عمدة بلدته .

القبـــــــلة

للكاتب الروسى أنطون تشكوف

١٨٦٠—١٩٠٤

(ابن تاجر درس فى جامعة مسكو وبدأ وهو طالب يكتب القصص القصيرة التى أذاعت شهرته . ويعد هو وجوجول أعظم الكتاب الروس الفكهين . وقد ترجمت مسرحياته وأهمها بستان الكراز ، والأخوات الثلاث والعم فانيا إلى كثير من اللغات ومثلت بنجاح فى كثير من البلاد . وقد ترجمت أولى هذه المسرحيات إلى اللغة العربية) .

فى الساعة الثامنة من مساء اليوم العشرين من مايو كانت الست الفرق من المدفعية الاحتياطية فى طريقها إلى معسكراتها ، حين توقفت لقضاء الليل فى قرية مستتشكو . وفى أثناء الهرج والضباط مشغولون ببنادقهم ، وآخرون قد تفرقوا فى الميدان يستمعون لأوامر القيادة العليا ، أقبل فارس فى ثياب مدنية من وراء الكنيسة على ظهر مهر عجيب صغير الحجم فاتح اللون له رقبة جميلة وذيل قصير ، يتخبط فى جريه يمينا وشمالا ، ويرمى رجليه فى حركات عنيفة سريعة كأنما يهوى عليها سوط . ووقف الفارس أمام جماعة من الضباط وقال وهو يرفع قبعته :

« إن صاحب السعادة الجنرال فون رابك صاحب هذه الضيعة يسره أن يدعوكم لتناول الشاى معه » .

وتقهقر الحصان إلى ناحية ، ورفع الفارس قبعته مرة أخرى ، ثم استدار واختفى وراء الكنيسة بدابته العجيبة المنظر .

وزمجر بعض الضباط وهم عائدون إلى ثكناتهم وقالوا . « ما هذا السخف ؟ يرغب المرء أن ينام فيجىء هذا الفون رابك ودعوته ، إننا نعلم معنى هذه الدعوة » .

وتذكر كل ضابط فى الفرق الست حادثة وقعت لهم فى العام الماضى خلال التدريب العسكرى، حين دعاهم كونت كان ضابطا فى المعاش ودعا معهم ضابط إحدى فرق القوزاق لتناول الشاى ، وكيف احتفى بهم الكونت الكريم أعظم حفاوة وأصر على أن يقضوا الليل فى منزله بدل أن يقضوه فى الثكنات . وكان هذا ولاشك جميلا ، ولم يكونوا يرغبون فى شىء أحسن منه ، غير أن الكونت كان شديد الاغتباط بصحبة الشبان ، فظل حتى مطلع الشمس وهو يثقل عليهم بالحديث عن ماضيه السعيد ، ويقودهم من حجرة إلى أخرى ليريهم صوره الغالية ، ولوحاته القديمة ، وما لديه من الدروع النادرة ، بل ويقرأ عليهم خطابات تلقاها من شهيرات النساء . وكان الضباط المتعبون يستمعون وينظرون وهم فى شوق عظيم إلى مضاجعهم ، ويتثاءبون خفية وراء أكفهم . ولما تركهم مضيفهم فى النهاية حاولوا عبثا أن يناموا فقد كان الوقت متأخراً جداً .

ترى هل يختلف فن رابك عن ذلك ؟ ومهما يكن من شىء فإن الضباط لم يكن لهم بد من أن يغتسلوا ويرتدوا ملابسهم ويذهبوا للبحث عن منزل صاحب المزرعة . فلما وصلوا إلى الميدان الذى تقع فيه الكنيسة قيل لهم إنهم يستطيعون الوصول إلى النهر بطريق خلف الكنيسة ، ثم يسيرون على الشاطئ حتى يصلوا إلى حديقة صاحب المزرعة ، وهناك ممر يؤدى إلى باب الدار ، أو يسيرون فى الطريق الذى يلتف فى نصف دائرة حول مخازن محصولاته ؛ فاختار الضباط الطريق الثانى .

وتساءلوا فيما بينهم فى الطريق « من هو هذا الفن رابك ؟ أهو الرجل الذى كان قائداً للفرسان فى بلقتنا ؟ »

« لا . لم يكن اسمه فن رابك بل رابى فقط »

« ما أجمل الطقس ! »

وعند أول مخزن للمحصولات انقسم الطريق قسمين ، أحدهما مستقيم يختفى فى

ظلمة المساء ، والآخر إلى اليمين يؤدى إلى منزل صاحب الضيعة . واتجه الضباط إلى اليمين وقد خفضوا أصواتهم ، وشاهدوا على جانبى الطريق المخازن الحجرية بأسقفها الحمراء ، وكانت فى ضخامتها وكآبتها تبدو كأنها ثكنات فى مدينة ريفية .

وقال أحد الضباط : « هذه علامة طيبة يا سادة ! إن كلاب الصيد يتقدمنا وهذا يعنى أنه يشم رائحة شواء ! »

وكان فى مقدمة الجميع الملازم لوبتكو وهو طويل القامة عريض المنكبين ، حليق الشارب ، وكان فى الخامسة والعشرين من عمره رغم أن وجهه المستدير الممتلئ لا يدل على ذلك ، وكان يشتهر فى كتيبته بقدرته على الإحساس بوجود نساء فى مكان ما عن بعد ، واستدار وقال :

« نعم ، إنى متأكد من وجود نساء فى هذا المكان . إنى أحس ذلك بالسليقة »

وعلى باب المنزل قابلهم فن رابك بنفسه ، وكان رجلا وسيما فى الستين من عمره يرتدى ملابس مدنية ، وصافح الضباط وقال لهم إنه مسرور وسعيد برؤيتهم ، ولكنه يرجو المعذرة إذ لم يدعهم لقضاء الليلة عنده ، فإن شقيقتيه وأولادهما قد حضروا ، هم وأشقاؤه و بعض الجيران ، ولهذا فإنه ليس لديه حجرة واحدة خالية .

وكان القائد هو اللطف مجسما ، ولكن ظهر من ملامح وجهه أنه لم يكن شديد الاغتباط بضيوفه كذلك الكونت الذى لبوا دعوته فى السنة الماضية ، وأنه مادعاهم إلا استجابة لداعى المجاملة . وبدا ذلك جليا حينما صعدوا على الدرج المغطاة بالأبسطة وهم يستمعون إلى مضيفهم و يرون الخدم يهرعون إلى إضاءة المصابيح فى البهو والدرج ، فقد شعروا أن فى وجودهم مضايقة لمن فى المنزل ، فإذا كان قد اجتمع تحت سقف المنزل أختان وإخوة وجيران لعلهم جاءوا للاحتفال بحادث عائلى ، فكيف تكون الأسرة مسرورة لمقدم تسعة عشر غريبا ؟ »

وعند باب حجرة الاستقبال حيث وقفت تستقبل الضيوف سيدة طويلة رشيقة

و إن كانت كبيرة السن ، ذات وجه بيضاوى ، وحاجبين سوداوين ، تشبه الإمبراطورة أوجينى . فرحبت بهم بابتسامة أنيقة واعتذرت لعدم استطاعتها دعوتهم للمبيت ، وظهر من الابتسامة التى اختفت من وجهها فى اللحظة التى استدارت فيها أن السيدة قد لقيت الكثيرين من الضباط فى أيامها ، وأنها لم تعد تهتم بهم الآن ، وأنها و إن دعتهم إلى منزلها وقدمت لهم اعتذارها لم تفعل هذا إلا لأن تربيتها ومركزها يتطلبان ذلك منها .

ولما دخل الضباط حجرة الطعام رأوا اثنى عشر رجلا وسيدة كبارا وصغارا يجلسون إلى ناحية من مائدة طويلة يشربون الشاى ، وفى وسطهم شاب رفيع ذو شارب أحمر يتكلم الإنجليزية فى صوت عال . ومن خلف الجماعة تبدو من خلال الباب غرفة ساطعة الضوء ذات أثاث أزرق فاتح .

وقال القائد بصوت عال متكلفا المرح :

« أيها السادة ، إنكم من الكثرة بحيث يستحيل علىّ أن أتولى تقديمكم بعضكم لبعض . أرجو أن تقدموا أنفسكم دون كلفة » .

وانحنى الضباط وجلسوا إلى المائدة و بعضهم يتكلف الرزانة ، و بعضهم يتكلف ابتسامة ، وكلهم يشعر بعدم الراحة ، وخاصة الضابط ريابوفتش وهو رجل مستدير الكتفين يلبس منظارا على عينيه . ففى الوقت الذى اتخذ بعض رفاقه سيماء الجد وابتسم البعض الآخر قسرا كان وجهه وشاربه الذى يشبه شارب القط ، ومنظاره تبدو ، بل هو كله يبدو ، وكأنه يقول « إنى أشد ضباط السلاح حياء وتواضعا . . »

ولما دخل الحجرة وجلس إلى المائدة لم يستطع أن يركز انتباهه فى شىء بعينه أو وجه معين ، فقد كانت الوجوه والملابس وزجاجات الخمر ونقوش الجدران ، والبخار المتصاعد من الأكواب ، تختلط فى إحساس يربك ريابوفتش و يثير فيه الرغبة فى إخفاء رأسه . وكان كمحاضر يواجه مستمعين لأول مرة — يرى الأشياء أمام عينيه

ولكنه لا يدرك منها شيئا (وهذه الحالة التى يرى فيها الشخص المرئيات دون أن يدركها تعرف عند الفسيولوجيين باسم «العمى النفسانى») .

ولما اعتاد ما حوله بعد لحظة ، بدأ ينظر يمينا وشمالا ، ولما كان رجلا خجولا لم يعتد المجتمعات فقد راعته أولا جرأة معارفه الجدد الغريبة إذ رأى فن رابك وزوجته وسيدتين مسنتين وفتاة فى رداء بنفسجى وشابا ذا حلة حمراء — عرف أنه ابن رابك الأصغر — رأى هؤلاء قد وزعوا أنفسهم بين الضباط بمهارة كأنما نظموا الأمر من قبل ، و بدءوا حديثا لم يستطع الضيوف إلا أن يشتركوا فيه . وقالت الفتاة ذات الثوب البنفسجى إن الحياة فى المدفعيـة أسهل منها فى فرقة الفرسان أو المشاة ، بينما عارض هذا الرأى فن رابك و إحدى السيدتين العجوزين .

و بدأ النقاش ونظر ريابوفتش إلى الفتاة ذات الثياب البنفسجية وكانت تناقش موضوعا لا تعرف عنه شيئا ولا يهمها فى شىء ، ولاحظ الابتسامات المصطنعة التى تتلاعب على وجهها .

واستدرج فن رابك وزوجته الضباط بمهارة إلى الحديث بينما كانت عيونهما ترقب بعناية زجاجات الضيوف وأطباقهم ليريا أنهم كلهم يأكلون و يشربون . وكلما شاهد ريابوفتش واستمع زاد اعجابا بهذه الأسرة غير المخلصة و إن كانت رائعة النظام .

و بعد تناول الشاى انتقل الضباط إلى حجرة الجلوس ، ولم تخب فراسة الملازم لو بتكو فقد كان هناك الكثير من الفتيات والسيدات الشابات فى الحجرة ، ووقف الملازم الجسور إلى جانب فتاة جميلة فى ثوب أسود وهو ينحنى برشاقة نحوها كأنما يرتكز على سيف خفى ، و يبتسم و يحرك كتفيه مغازلا ، ولا بد أنه كان يتحدث عن شىء تافه ممل ، فقد نظرت الفتاة الجميلة إلى وجهه المستدير فى تلطف وقالت دون اهتمام «أحقا ؟ !» وكان على الملازم — لو كان ذكيا — أن يدرك من ترديدها هذه الكلمة أنها لم تسر كثيراً من قوله .

وبدأ بعضهم يضرب على البيان دورا حزينا ، فجعل ذلك الجوّ الحزين الذى يسبح من خلال النوافذ المفتوحة كل إنسان يذكر أنه فى شهر مايو ، وأن الجو جميل حقا ، وأن منظر البنفسج والورد والحور يملأ الجو .

واستندر يابوفتش وهو واقع تحت تأثير الموسيقى والخمر التى احتساها على حافة النافذة يبتسم ، وبدأ يتابع حركات السيدات ، وبدا له أن شذا الورود والبنفسج والحور لا يأتى من الحديقة بل من وجوههن وثيابهن . ودعا نجل فن رابك فتاة نحيلة طويلة إلى الرقص ، ودارا دورتين أو ثلاثا حول الحجرة، واندفع لوبتكو على الأرض الملساء إلى ذات الثياب البنفسجى ، وخاصرها فى وسط الحجرة . . . وبدأ الرقص ووقف ريابوفتش إلى جانب الباب بين الرجال الذين لا يرقصون يتطلع ، فلم يكن قد رقص فى حياته ، ولم يتح له أن يلف ذراعه حول خصر سيدة محترمة. وكانت فكرة أخذ رجل فتاة غريبة من خصرها أمام الجمع وتقديم كتفه لها لتضع عليها ذراعها فكرة تسره بلا شك ، لكنه لا يستطيع أن يتخيل نفسه فى موضع مثل هذا الرجل. ولقد أتى عليه وقت حسد فيه رفاقه على شجاعتهم وجرأتهم ، وتفطير قلبه وهو يشعر أنه حيى، مستدير الكتفين ، وأن له شاربا كالقط ؛ لكنه ألف ذلك على مر الأيام ؛ وبينا كان يحملق فى الذين يرقصون ويتكلمون بصوت عال ، لم يعد يحسدهم ، واطمأنت نفسه إلى حاله ، وكل ما فى الأمر أنه كان يحس بشعور الحزن .

ثم تقدم فن رابك الصغير نحو الرجال الذين لا يرقصون ، ودعا إثنين من الضباط إلى لعب البليارد ، فتبعاه خارج غرفة الجلوس . ولما كان ريابوفتش لا يجد ما يعمله ، وكان يرغب فى أن يشارك بطريقة ما فى الهرج ، فقد اقتفى أثرهم ؛ ومروا من غرفة الجلوس فى ممر ذى جدار زجاجى ضيق ، ثم فى غرفة أخرى . فلما أن دخلوا قفز ثلاثة من الخدم كانوا يغالبون النعاس على أريكة فيها . وبعد أن مروا فى طائفة أخرى من الغرف دخلوا فى النهاية غرفة البليارد وبدأ اللعب .

ولم يكن ريابوفتش قد مارس أية لعبة سوى لعب الورق ، فوقف إلى جانب المنضدة ينظر دون إهتمام إلى اللاعبين ، وقد فكوا أزرار حللهم ، وأمسكوا بالعصى فى أيديهم ، وأخذوا يمشون وهم يمزحون و يصيحون بألفاظ غير مفهومة . ولم يعره اللاعبون انتباهاً ، وكل مافى الأمر أنهم كانوا يعتذرون إليه فى أدب إذا ماصدمه أحدهم بمرفقه أو مسه بعصاه . وما أن انتهى الدور الأول حتى مل موقفه ، وظن أنه ليس مرغوبا فيه ، فغادر غرفة اللعب قاصداً غرفة الرقص .

وحدثت له وهو فى طريق عودته مغامرة صغيرة : فقد لاحظ وهو فى منتصف الطريق أنه لا يسير فى الاتجاه الصحيح . ذلك أنه كان يذكر جيداً أنه يجب أن يمر بالحجرة التى رأى فيها الخدم الناعسين ، لكنه مر خلال ست حجرات ، وكأن الخدم قد اختفوا . ولما أدرك خطأه رجع قليلا ثم اتجه إلى اليمين ، فدخل غرفة معتمة لم يذكر أنه مر بها فى طريقه إلى حجرة اللعب . وتوقف لحظة ثم فتح بعزم أول باب صادفه ، ووجد نفسه فى غرفة مظلمة . و بدا له أمامه من خلال ثقوب فى الباب ضوء ساطع ، ومن خلف الباب أتت إليه نغمة محزنة مكبوتة . وكانت هذه الحجرة كحجرة الجلوس مفتحة النوافذ تظهر الحور والبنفسج والورود .

ووقف ريابوفتش فى حيرة ، وفى هذه اللحظة سمع وقع أقدام سريعة ،وحفيف ثوب وصوت سيدة ممتلئاً بالعاطفة يهمس « أخيراً ! »

والتفت ذراعان ناعمتان بضتان حول عنقه لم يكن يشك فى أنهما ذراعا امرأة ، ولامست خده وجنة دافئة ، وفى نفس اللحظة سمع صوت قبلة . ثم صرخت المرأة صرخة ، مكتومة وقفزت كما بدا لريابوفتش من الذعر مبتعدة عنه . ولقد أوشك هو أن يصيح واندفع نحو شعاع الضوء الذى كان يبدو من خلال الباب ...

ولما عاد إلى غرفة الرقص كان قلبه يدق دقات سريعة و يداه ترتعشان بشدة فأخفاهما وراء ظهره . وظل فى اللحظات الأولى يتناوبه الخزى والذعر . و بدا له أن

كل إنسان فى الحجرة لا بد يعرف أنه قد احتضنته امرأة . وألقى نظرة قلقـــة على ماحوله ، فلما اقتنع بأن كل من فى الحجرة يرقصون و يتحدثون فى هدوء كما كانوا ، أطلق العنان لمشاعره ليستمتع بالإحساس الذى عرفه لأول مرة فى حياته . لقد حدث له أمر عجيب ، فقد خيل إليـه أن عنقه الذى أحاطته منـذ هنيهة ذراعان ناعمتان جميلتان مدهون بالزيت ، وأحس على خده بجانب أذنه اليسرى حيث قبلته الفاتنة المجهولة ببرودة جميلة كأنها ناشئة من تبخر قطرات من زيت النعناع . وكلما واصل مسح هذه البقعة إزداد هذا الشعور قوة . وقد ملأه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه شعور جديدة أخذ يتزايد شيئاً فشيئاً . فقد كان يريد أن يرقص و يتحدث و يجرى فى الحديقة و يضحك . . . . ونسى أنه مستدير الـكتفين وأنه لا شكل له « كما قالت سيدة تعرفه فى مناقشة مع سيدة أخرى طرقت سمعه مصادفة » . ولما مرت بهزوجة فن رابك وجه إليها ابتسامة عريضة طيبة جعلتها تقف وتنظر إليه فى دهشه ، فقال لها وهو يثبت نظاراته « إنى أحب منزلكم حبا جما ! » فابتسمت زوجة القائد وقالت له إن المنزل كان من قبل منزل والدها ، ثم مضت تسأله هل والداه على قيد الحياة ؟ وكم مضى عليه فى الخدمة ؟ ولماذا يبدو نحيفا ؟ وما إلى ذلك . . . . و بعد أن تحدثت إليه برهة مضت و بدأ ريابوفتش يبتسم ابتسامة أعرض وأرق من ذى قبل ، و يتخيل نفسه محوطا بأكرم قوم . . . . .

ولمـا جلس إلى المـائدة أخذ يأكل و يشرب بطريقة آلية كل ما يقدم إليه . ولم يسمع كلمة واحدة مما كان يقال ، و بدأ يفـكر فى تفسير مغامرته الغريبة ، فقد كانت مغامرة تجمع بين الغرابة والجدة لـكنها لا يصعب تفسيرها . فلعل فتاة أو سيدة قد واعدت رجلا فى الحجرة المظلمة ، ولما كانت فى حالة قلق عصبي بسبب طول الانتظار ، فإنها حسبت ريابوفتش فارسها ، وخاصة لأنه وقف فى تردد لما دخل الغرفة

كما لو كان هو الآخر يتوقع لقاء أحــد . . . . على هذا النحو فسر ريابوفتش القبلة التى تلقاها .

لـكنه أخذ يفـكر وهو يحدق فى وجوه النساء من حوله . . . « ترى من هى ؟ لابد أنها شابة فالعجائز لا يواعدن الرجال ! ولابد أنها راقية . لقد أحسست ذلك من حفيف ثوبها ومن رائحتها ومن صوتها . . . . »

ووقعت نظرته على الفتاة ذات الثوب البنفسجى و بدت له جد جذابة ، فقــد كانت جميلة الذراعين والـكتفين ، ينم وجهها عن ذكاء ، وصوتها جميل ، ونظر إليها وقرر أنها هى ولا أحد سواها فاتنته المجهولة . . . . لـكنها ابتسمت فى تـكلف وأدارت أنفها الطويل ، فبدت له كبيرة السن . ثم نقل نظره إلى الفتاة الجميلة ذات الرداء الأسود . لقد كانت هذه أصغر من الفتاة الأولى وأكثر بساطة . وكانت لهـا لثتان جميلتان وطريقة جذابة فى احتساء مافى كأسها . لذلك أراد ريابوفتش أن تـكون هى الفتاة المجهولة التى لقيها ، لـكنه سرعان ما وجد أن ملامحها شديدة الاستواء ، فنقل انتباهه إلى جارتها وقال وهو يقلب الأمر فى نفسه :

« لا يستطيع الإنسان أن يحكم ، فلو أخذنا كتفى الفتاة ذات الثياب البنفسجية وذراعيها ، وأضفنا لهما وجنتى هذه الفتاة الجميلة وعينى تلك التى تجلس إلى يسار لو بتكو فإننا . . . »

ورسم فى خياله صورة للفتاة التى قبلته ، صورة اشتهاها لـكنه لم يجدها فيمن كن حول المائدة .

و بعد العشاء وقد امتلأ الضيوف بالطعام والشراب ، شكروا مضيفهم واستأذنوا فى الانصراف . واعتذر القائد وزوجته مرة أخرى لعدم استطاعتهم دعوتهم للمبيت .

وقال صاحب البيت : « لقد سعدت بلقائكم ياسادة » قالها مخلصا هذه المرة (لأن الضيوف الراحلين يعاملون بحفاوة أكثر من القادمين) ، وأضاف « سعيد

حقا ! وآمل أن تمروا بنا وأنتم عائدون دون تكليف كما تعلمون. أى طريق ستسلكون؟ هل تركبون ؟ إن لم تكونوا عائدين راكبين فاذهبوا بطريق الحديقة فهو أقرب كثيراً»

وخرج الضباط إلى الحديقة التى بدت لهم — بعد أن كانوا فى الضوء الساطع والصخب — شديدة الظلمة والسكون . ومشوا إلى الباب صامتين . لقد كانوا أنصاف سكارى ، مرحين مغتبطين . لكن الظلمة والسكون قد جعلاهم واجمين مفكرين. ولا ريب فى أنهم كانوا يقولون فى أنفسهم ما كان يقول ريابوفتش فى نفسه : هل يكون لهم يوما من الايام ما لرابك ، منزل عظيم وأسرة وحديقة ؟ وهل يتاح لهم أن يدعوا ضيوفا ولو فى غير إخلاص و يسكروهم و يمتعوهم ؟ .

ولما اجتازوا المدخل الرئيسى بدأوا يتكلمون و يضحكون كلهم ما دون سبب ، وكانوا الآن يسيرون فى الطريق الذى يؤدى إلى النهر ، ويجرى على حافة الماء ملتفا حول الشجيرات ، تظلله أشجار الصفصاف . وكان المار لا يبصر الشاطئ والطريق إلا بصعوبة . وكان الشاطئ الآخر تلفه الظلمة عن آخره . وكانت تلتمع فى الماء المظلم هنا وهناك النجوم المنعكسة فيه، ولم يكن فى وسع من يرى مياه النهر أن يحكم أنه ينحدر بقوة إلا من طريقة ارتجافها وتحركها ، وكان الهواء راكداً وكانت بعض الديكة المتناومة تصيح من الضفة الأخرى ، وكان عندليب على شجيرة يملأ الجو شدوا غير عابئ بالضباط . ووقف أحدهم إلى جانب الشجيرة وهزها لكن العندليب استمر فى الغناء .

وصاحت أصوات : « ياله من متسول شجاع ! ها نحن أولاء نقف بجانبه فلا يعبأ بنا ذلك الخبيث »

ثم بدأ الممر آخر الأمر فى الصعود ، وعند الكنيسة انتهى إلى الطريق العام ، وهنا جلس الضباط ليدخنوا و يستريحوا من عناء التصعيد فى التل ، و بدا ضوء أحمر

خافت من الضفة الأخرى ؛ ولما لم يكن لديهم ما يقضون فيه وقتهم فقد أخذوا يفكرون هل هو نار معسكر ، أو نور من نافذة ، أو شيء غير هذا وذاك ؟ . . .

وحلق ريابوفتش هو الآخر فى الضوء ، و بدا له كأنه يبتسم له و يشير إليه ، كأنه يعلم بسر القبلة .

ولما وصلوا إلى المعسكر خلع ريابوفتش ملابسه من فوره وأوى إلى فراشه ، وكان معه فى نفس الخيمة لو بتكو والملازم مرسليكوف ، وهو شخص هادئ صموت كان يعد رجلاً مثقفا ، و يقرأ دائما صحيفة رسول أور با The Messenger of Europe وهى مجلة كان يحمل نسخة منها أينما ذهب . وخلع لو بتكو ملابسه ، وأخذ يذرع الحجرة من أقصاها إلى أقصاها فى قلق ، ثم أرسل تابعه يطلب خمرا . وذهب مرسليكوف إلى فراشه بعد أن وضع إلى جانبه شمعة ثم غطى وجهه بصفحات المجلة .

وقال ريابوفتش وهو يحدق فى السقف الداكن « إنى لأعجب من تكون ؟ » وكان عنقه لا يزال كأنما بلله زيت ، وكان لا يزال يشعر بالبرودة الشبيهه بتبخر عطر النعناع حول فمه ، واستعرضت مخيلته صور كتفى الفتاة ذات الثوب البنفسجى وذراعيها ، وخدى الفتاة الجميلة ذات الثوب الأسود وخصرها وملابسها وجواهرها ، وحاول أن يركز انتباهه فى هذه الصور لكنها كانت تتراقص أمام عينيه وتبدو ثم تختفى ، حتى إذا ما أقفل عينيه وتلاشت هذه الصور سمع وقع الأقدام المسرعة وحفيف الثوب وصوت القبلة . وتملكه شعور طاغ من الفرح . ولما أسلم نفسه للاستمتاع بهذا الشعور سمع الجندى يعود و يقول إنه لم يجد خمراً ، وتضايق لو بتكو و بدأ يذرع الحجرة من جديد .

وقال وهو يقف حينا إلى جانب سرير ريابوفتش وحينا بجانب سرير مرسليكوف : « أليس مغفلا ؟ لابد أنه أحمق ومغفل حين يخفق فى الحصول على الخمر . ماذا ؟ إنه لمجرم »

فقال مرسليكوف دون أن يرفع نظره عن صفحات الجريدة : « إنه لا يستطيع بطبيعة الحال أن يجد خمراً فى هذا المكان »

فقال لوبتكو وهو مصر على رأيه : « لم تعتقد ذلك ؟ إنى أراهنك على أى شىء أنى سأجد خمراً ونساء أيضاً ، وسأذهب فى هذه اللحظة ، وتستطيع أن تسمينى ما شئت من الأسماء إن أخفقت . »

وقضى وقتا طويلا فى ارتداء ملابسه ولبس حذاءيه ، ثم أشعل لفافة وخرج دون أن ينبس بكلمة أخرى . وتمتم وقد وقف فى الممر : « رابك . جرابك . لابك ! أحس بأنى لا أستطيع الذهاب وحدى . لعنة الله عليه . ريابوفتش ألا تأتى معى لنقوم بجولة ؟ .

فلما لم يأته جواب رجع وخلع ملابسه فى بطء وآوى إلى فراشه .

وتحسر مرسليكوف ورمى جريدته وأطفأ الشمعة ، وتمتم لوبتكو وهو يدخن لفافة فى الظلام « نعم »

وجر ريابوفتش الأغطية على رأسه ، وبدأ وهو يلف نفسه يضم الصور المتناثرة التى تسبح فى مخيلته بعضها إلى بعض ، لكنه أخفق فى أن يصل منها إلى نتيجة . وسرعان ما غط فى النوم ، وآخر ما فى ذهنه أن إنسانا قد عطف عليه وأسعده ، لقد أضيف شىء طيب مبهج إلى حياته رغم أنه شىء لا معنى له ، ولم يبارحه هذا الخاطر حتى فى منامه .

ولما استيقظ كان ما أحسه من وجود شىء من الزيت على رقبته ، وشعور البرودة الناشئة من تبخر النعناع حول شفتيه ، قد فارقه ؛ لكن شعور البهجة ظل يملأ قلبه ، وأخذ ينظر فى نشوة إلى حديد النوافذ ، وقد غمرتها الشمس فى شرفها بأشعتها الذهبية ويستمع إلى ضجة الطريق ، وكانت مناقشة عالية تدور تحت نافذته ، وذلك أن قائد بطاريته لبدتسكي الذى لحق بالفرقة تواً كان يتحدث إلى جندى بأعلى صوته متأثراً فى ذلك بعادته ، إذ أنه لم يتحدث فى حياته بصوت منخفض .

وصاح القائد « وماذا بعد هذا ؟ »

« وقد أصيبت جولو بشكايا جناب الرئيس حين كانت تلبس حذاءها، ووضع الجراح لها بعض الجير والخل، وفى الليلة الماضية ياجناب الرئيس سكر الميكانيكى وارتجف وأمر بالملازم أن يحبس »

وأخبره الجندى أيضا أن كاربوف نسى الحبال الجديدة لأنابيب الاحتكاك، ونسى أوتاد الخيام، وأن الضباط قد قضوا الليلة عند القائد فون رابك، وبدت لحية لبدتسكى الحمراء من النافذة خلال الحديث، ونظر بعينيه القصيرتى النظر إلى وجوه الضباط الناعسة وحياهم وسألهم « هل كل شىء على مايرام ؟ »

فأجاب لوبتكو وهو يتثاءب » لقد جلط النير الجديد كاهل الحصان المسرج »
فتنهد القائد وسكت لحظة ثم قال بصوت عال :

« كنت أفكر فى زيارة الكسندرا اجرافوفنا فلا بد أن أزورها، وداعا . سألحق بكم قبل المساء »

وبعد ربع ساعة بدأت الفرقة تسير فى طريقها، ولما مروا بمخازن فن رابك نظر ريابوفتش إلى المنزل، كانت الستائر لاتزال مسدلة، وما من شك فى أن الجماعة لاتزال نائمة، وأنها هى أيضاً كانت نائمة — الفتاة التى قبلته بالأمس —، وجهد أن يتصورها وهى نائمة هناك النافذة المفتوحة فى غرفة نومها، والأغصان الخضراء تطل منها، وهواء الصباح المنعش ومنظر الحور والبنفسج الورد، والسرير، ومقعد عليه ثوبها الذى كانت ترتديه بالأمس، وخفاها، وساعة على المنضدة، كل هذه الأشياء رآها واضحة جلية، لكن الشىء الوحيد الذى أراد أن يراه وهو ملامح الفتاة وابتسامتها الحلوة الحالمة كان ينزلق من مخيلته كما ينزلق الزئبق من بين الأصابع. وما إن ساروا نصف ميل حتى استدار خلفه، وكانت الكنيسة الصفراء والمنزل والنهر والحديقة تسبح فى ضوء الشمس، وبدا النهر جميلا بشاطئيه الأخضرين الجميلين

وانعكاسات السماء ، والبقع الصفراء من ضوء الشمس . ونظر ريابوفتش مرة أخرى إلى القرية وتملكه شعور بالحزن ، كأنه قد خلف وراءه شيئا قريبا إليه عزيزا عليه .

وفى الطريق لم تكن تطالع العين إلا المناظر المألوفة التى لا تثير الاهتمام ، فعلى اليمين كانت حقول الشعير والذرة والغربان القافزة، و إلى الأمام الغبار وأقفية الرجال، و إلى الخلف الغبار نفسه ووجوههم ؛ وفى مقدمة الصفوف أربعة جنود بمدافعهم هم طليعة الفرقة ، ووراءهم رجال الموسيقى . وكان رجال الطليعة والموسيقى كأنهم يسيرون فى موكب جنازة ، و بين الحين والحين يخالفون النظام الموضوع فيتقدمون كثيراً ؛ وكان ريابوفتش مع فرقته الخامسة يرى أمامه أربع فرق .

إن منظر الجنود ، وهم يسيرون فى صف طويل مثقلين بأحمالهم ، ليبدو لغير الجندى منظراً طريفا مسليا . فهو يصعب عليه أن يفهم لماذا يحتاج مدفع واحد لمثل هذا العدد من الرجال ؟ ولماذا يلزمه هذا العدد من الخيل لتجره ؟ لكن هذه الأشياء كانت من الأمور المألوفة لريابوفتش ، فأصبحت تافهة لا طرافة فيها ، لقد عرف منذ سنوات لم يركب جندى ضخم إلى جانب الضابط أمام كل فرقة مدفعية و إلى جانب سائقى العجلات التى تسير فى المؤخرة ، وكان يعلم لماذا تسمى الجياد الأمامية « الجياد المسرجة » والخلفية «الجياد المقودة». وكان يجد هذا كله مملا للغاية، وكان يركب على إحدى العربات جندى معفر الظهر بتراب الأمس، وعلى رجليه واق ؛ وكان ريابوفتش يعرف فائدة هذا الواقى ولا يرى فيه شيئا غريبا . وكان كل واحد من الفرسان يركب جواده بطريقة آلية وتراه من حين إلى حين يصيح بفرسه أو يضربه بالسوط ، ولم تكن المدافع من الجمال بحيث تلفت النظر ، وكانت على ظهور الراجلين أكياس من الخيش مملوءة بالشوفان ، وكانت المدافع نفسها تزينها علب الشاى وحقائب الجنود وأجربتهم ، فتبدو كأنها حيوانات أليفة تحيطها لسبب ما خيول

ورجال . وكان يسير إلى جانب كل مدفع ستة من حاملى البنادق وهم يلوحون بأسلحتهم ، ووراءهم غيرهم من الطليعة ، ثم مدافع أخرى كلها فى الكآبة كسابقتها ، ووراء الثانية تأتى الثالثة ثم الرابعة ثم ضابط وهكذا . وكانت فى الفرقة ست كتائب ، ولكل كتيبة أربعة مدافع ، وكان الموكب يمتد نصف ميل فى الطريق ، وفى النهاية جاء قطار من العربات ، وبالقرب منها حمار يمشى وقد نكس رأسه . وكان هذا الحمار قد أحضره قائد الفرقة من تركيا .

وحدق ريابوفتش فى الأعناق التى أمامه والوجوه التى خلفه ، ولو كان فى يوم آخر لأغمض عينيه وحاول النعاس ، لكنه الآن أطلق العنان لأفكاره الجديدة البهيجة . ولما بدأت الفرقة فى السير حاول أن يقنع نفسه أن حادثة القبلة إن هى إلا مغامرة صغيرة مضحكة لا يمكن حملها على محمل الجد ، لكنه سرعان ما نحى المنطق جانباً وأطلق العنان لأحلامه . . فتخيل نفسه فى حجرة الجلوس فى منزل رابك إلى جانب فتاة تشبه التى كانت فى ثوب بنفسجى ، والأخرى ذات الثوب الأسود ، فلما أغمض عينيه خيل إليه أنه إلى جانب الفتاة العجيبة ذات الملامح المبهمة الجذابة ، وقد تكلم إليها فى الخيال واحتضنها وقربها إلى صدره ، وتخيل نفسه ذاهبا إلى الحرب تاركا إياها ، ثم تخيل عودته وتناول العشاء مع زوجته وأولاده .

وكان القائد يصيح قبل النزول من فوق كل تل « إلى الضوابط » ، فيصيح هو الآخر « إلى الضوابط » وهو يخشى فى كل لحظة أن تقطع هذه الصيحة تسلسل أحلامه وتنقله إلى عالم الحقيقة .

ومروا ببيت ريفى كبير ، فأطل ريابوفتش من فوق السور على الحديقة ، فطالع عينيه طريق طويل مستقيم مزين بالحصباء الصفراء ومزروع بالبتولا . . . . فتصور وهو فى نشوة الحالم أقداماً نسائيــة دقيقة تمشى فى الممر الأصفر ، وسرعان ما عادت إلى مخيلته فجأة صورة الفتاة التى قبلته — الفتاة التى لم يستطع أن يتخيل صورتهــا

بالأمس عند العشاء — وانطبعت هذه الصورة فى ذهنه ولم تفارقه بعدئذ .

وفى منتصف النهار سُمع أمر فى صوت عال بين ضجيج الصفوف « أيها الضابط . . . انتباه » ورأوا قائد الفرقة فى عربة يجرها جوادان أبيضان ، ووقف إلى جانب الكتيبة الثانية وصاح صيحة لم يفهمها أحد ، فتقدم إليه بضعة ضباط من بينهم ريابوفتش .

فسأل القائد وهو يغمز بعينيه المحمرتين : « كيف تسير الأمور ؟ هل أحد مريض ؟ » .

ولما تلقى الجواب فكر قليلا ثم التفت إلى أحد الضباط وقال :

« إن سائق عربة مدافعك الثالثة قد خلع غطاء ساقه وعلقها فى مقدمة العربة فعاقبه » ثم رفع عينيه إلى ريابوفتش وواصل حديثه قائلا :

« إن مؤخر سرجك أطول مما يجب » .

وبعد أن ألقى بضع ملاحظات متعبة استدار إلى لوبتكو وهو يبتسم وسأله « ما سبب حزنك اليوم يا ملازم لوبتكو؟أمن أجل مدام لوبوخوفا ، أيها السادة إن لوبتكو حزين من أجل مدام لوبوخوفا ! »

وكانت مدام لوبوخوفا سيدة طويلة بدينة تربى سنها على الأربعين ، وكان القائد الذى يميل إلى السيدات البدينات مهما تكن سنهن يعتقد أن أذواق جميع الضباط تتفق مع ذوقه . وابتسم الضابط باحترام ، وسر القائد من فكاهته التافهة ، فضحك بصوت مرتفع ، ومس ظهر السائق ، وحيا مودعا ، ومضت العربة فى طريقها .

وقال ريابوفتش فى نفسه : « إن هذا الأمر ، وإن بدا كأغرب الأحلام بعيداً كل البعد عن التصديق ، يحدث فى كل آن » . ونظر إلى سحابة التراب التى أثارتها عربة القائد ثم قال: «إنها شيء عادى ويحدث لكل إنسان . . . . فهذا القائد

مثلا لا بد أنه قد أحب ، وهو الآن زوج وله أولاد ، والضابط باشتر أيضاً قد تزوج وأحب ولا ريب ، رغم أن له عنقاً قبيحاً وليس له خصر ! وسلمانوف رجل فظ كأنه من التتار لـكنه كانت له واقعة حب انتهت بالزواج ، ولا فرق بيني و بين هؤلاء ، وسألاقى نفس المصير إن عاجلا و إن آجلا . . . . »

وأفاضت عليه هذه الفكرة ، فكرة أنه رجل عادى ، وأن حياته عادية ، سعادة وشجاعة . وأطلق العنان لخيالاته وصورها ، وصور سعادتها معها كما يجب أن تكون .

ولما وصلت الفرقة إلى مقرها واستراح الضباط فى الخيام جلس ريابوفتش ومرسليكوف ولوبتكو حول صندوق يتناولون العشاء . وكان مرسليكوف يأكل ببطء وهو يقرأ مجلة « رسول أوربا » الموضوعة على ركبتيه . وكان لوبتكو لا ينقطع عن الحديث ، و يدأب على ملأ كأسه بالخمر . أما ريابوفتش الذى كانت تختلط فى عقله أحلام اليوم الطويل فكان يشرب فى صمت ، و بعد الكأس الثالثة ضعف وانتشى ولم يستطع أن يقاوم رغبته فى أن يقص على رفاقه عواطفه الجديدة . فبدأ يقول فى لهجة حاول ألا تنم عن اهتمامه وقلقه :

« حدثت لى حادثة مضحكة عند آل رابك ، لقد ذهبت إلى غرفة البليارد كما تعلمون . . . » و بدأ يقص قصة القبلة فى تفصيل . ودهش إذ لم يستغرق سردها إلا وقتا قصيراً — دقيقة على الأكثر — وكان يظنها تستغرق الليل بأكمله ، ولما كان لوبتكو كذابا جريئا بطبيعته لا يصدق أحداً ، فقد نظر إلى ريابوفتش بابتسامة الشك ،ورفع مرسليكوف حاجبيه وقال وهو يرفع عينه عن الجريدة :

« حادثة غريبة ولا ريب . أترمى سيدة بنفسها فى أحضان رجل دون كلمة ؟ لابد أن الفتاة عصبية . أظن ذلك . . . . »

فوافق ريابوفتش على ذلك وقال « نعم ولا ريب »

و بدأ لوبتكو يقول « لقد حدثت لى حادثة شبيهة بهما . كنت مسافراً إلى

كوفنا فى العام الماضى فى الدرجة الثانية . وكانت العربة مزدحمة بالناس ولم يكن النوم مستطاعا . فأعطيت قارض التذاكر نصف روبل ، فأخذ متاعى وقادنى إلى عربة النوم واستلقيت وتغطيت بملاءة . . . . وكانت الظلمة حالكة كما تعلمون . وفجأة أحسست بشخص يلمس كتفى ، وتصل أنفاسه إلى وجهى ، وأخرجت يدى ولمست مرفقاً . . . . وفتحت عينى ، ولعلكم لا تصدقوننى إن قلت لكم إنى وجدته امرأة ! لها عينان سوداوان وشفتان قرمزيتان وأنف يتنفس حناناً ، وصدر ناهد ...

فقاطعه مرسليكوف فى هدوء « يمكننى أن أفهم أن صدرها كان ناهدا لكن كيف رأيت شفتيها فى الظلام ؟ » ،

فبدأ لوبتكو يتهكم ويضحك لافتقار مرسليكوف إلى الخيال. وتضايق ريابوفتش وغادر الصندوق واستلقى على فراشه وعاهد نفسه على ألا يفضى إلى أحد بأسراره مرة أخرى .

وبدأت حياة المعسكر ، وتوالت الأيام متماثلة ، وكان ريابوفتش طول الوقت يفكر ويشعر ويتصرف كما يفعل الرجل العاشق . وفى كل صباح حين يحضر له الجندى إناء الاغتسال ويصب الماء البارد على رأسه ، كان يتذكر أن شيئاً حلوا ثميناً قد طرأ على حياته . فاذا بدأ رفاقه يتحدثون عن الحب والنساء كان يقترب منهم وتبدو عليه سيماء جندى يسمع قصة معركة خاض غمارها ، فإذا ما قام الضباط تحت امرة لوبتكو بغزوات غرامية فى القرية ، كان ريابوفتش يشترك فيها ، ولكنه كان يشعر بالألم ويلوم نفسه ويفكر فى أن يطلب إليها الغفران . . . . وفى أوقات الفراغ أو إذا ما جفاه النوم بالليل حين يحس بالرغبة فى تذكر أيام طفولته وأبيه وأمه وكل ما هو مقرب إليه عزيز عليه ، كان دائماً يفكر فى منتشكو ، والحصان الغريب ورابك وزوجته التى تشبه الأمبراطورة أوجينى ، والغرفة المظلمة والثقب المضىء فى الباب . . . .

وفى الحادى والثلاثين من أغسطس عاد من المعسكر ؛ ولم تكن عودته مع كل الفرقة بل كانت مع كتيبتين فحسب ، واشتاق مرة أخرى إلى رؤية الحصان العجيب والكنيسة وأسرة رابك المتصنعة والغرفة المظلمة . وكان صوت داخلى طالما خدع المحبين يؤكد له أنه سيلقاها ، وبدأ يعجب كيف يجيبها وماذا يقول لها ، ترى هل نسيت القبلة ؟ وإذا ما حدث أسوأ الفروض ولم يرها فإنه على أى حال سيسير فى الغرفة المظلمة ويتذكر . . . .

وقبل الغروب بدت فى الأفق الكنيسة المعهودة والمخازن البيضاء ، ودق قلب ريابوفتش دقا سريعا ولم يعد يسمع ما يقوله الضابط الذى يركب قريبا منه ، ونسى كل شىء ، وحملق فى شوق عظيم إلى النهر وهو يلتمع من بعد ، وإلى سطح المنزل ، وإلى برج الحمام ، وإلى الحمام نفسه وهو يتلألأ فى ضوء الشمس الغاربة .

ووصلوا إلى الكنيسة واستمع إلى أوامر القيادة العليا وهو يتوقع فى كل لحظة أن يرى الفارس الذى يدعوهم إلى بيت القائد لتناول الشاى ، لكن الأوامر انتهت وأسرع الضابط إلى القرية ولم يأت الفارس بعد . . . .

وقال ريابوفتش فى نفسه : سيعلم رابك بمجيئنا من الفلاحين ويرسل إلينا . .

ودخل الكوخ وهو يعجب لم أوقد رفاقه الشموع ولم يعد الجنود الطعام ؟ وشعر بالحزن ، واستلقى نائما ، ثم استيقظ ونظر من النافذة ليرى هل الفارس قادم ، لكنه لم ير فارسا مقبلا ، فاستلقى مرة أخرى ، ولم يستطع احتمال قلقه ، فمضى بعد قليل إلى الشارع واتخذ طريقه إلى الكنيسة . وكان الميدان الذى فيه الكنيسة مظلما مهجوراً ، وكان ثلاثة من الجنود واقفين معا فى صمت على حافة التل ، فلما رأوا ريابوفتش بهتوا وأدوا التحية فردها وبدأ يصعد التل من الطريق المعهود .

وعلى الضفة الأخرى كانت الشمس فى لون قرمزى فاتح ، وأشرق القمر ، وكانت امرأتان تتحدثان بصوت عال وتقطعان أوراق الكرنب من حديقة المطبخ ،

وأبصر وراء هذه الحديقة بعض الأكواخ .... وكان منظر هذه الضفة كما كان في شهر مايو ، فقد كان هناك الممر والشجيرات والصفصاف المطل على الطريق ، ولم ينقصه إلا صوت العندليب الصغير الجرىء ورائحة الحور والعشب القصير .

واقترب ريابوفتش من الحديقة ونظر خلال بابها . وكان داخلها مظلما ساكنا، وكانت جذور بعض أشجار البتولا القريبة تبدو لعين الناظر هي وجزء من الطريق. أما الباقي فكان كتلة من الظلام ، وأنصت ريابوفتش بانتباه وحدق في الظلمة لكنه بعد أن ظل يراقبها نصف ساعة ولم يسمع صوتاً أو يرى ضوءا ارتد عائدا .

ووقف عند النهر ، وكان يلتمع أمامه في الظلام كوخ استحمام القائد وقطعة من القماش معلقة على سور الجسر الصغير . ومضى إلى هذا الجسر لغير سبب ووضع يده ومس القماش .... وحدق في النهر .... وكان تيار النهر يجرى سريعاً ، وكان خرير الماء يسمع حين يصطدم بقوائم كوخ الاستحمام ، وكان القمر ينعكس قرب الشاطىء الأيسر كبيراً أحمر ، والأمواج الصغيرة تسبح من فوقه فتطيل الصورة وتقسمها إلى أجزاء كأنما تود أن تحملها إلى مدى بعيد .

وغرق ريابوفتش في أفكاره وقال وهو يحدق في الماء يجرى بسرعة « كم كان ذلك سخيفاً .. كم كان سخيفاً .. كم كان هذا كله سخيفاً .... »

والآن ولم يعد ينتظر شيئاً بدت له قصة القبلة وقلة صبره وآلامه المبهمة وتصوراته في ضوء الحقيقـة ، ولم يعد يبدو له غريباً أنه لم ير فارس القائد وأنه لن يلقى الفتاة التي قبلته خطأ إذ ظنته شخصا آخر ، بل بدا له أن التقاءها به هو الأمر الغريب....

وجرى الماء إلى جانبه ، ولكن أحدا لايدرى إلى أين يجرى ولم يجرى ؟ لقد كان يجرى كذلك في شهر مايو ، لقد بدأ من مجرى صغير ثم صب في نهر عظيم ثم في البحر ، ومن البحر علا في السماء سحابا ثم نزل مطرا ، والآن ربما كان الماء الذى

يمر به هو نفسه الذى رآه فى مايو لم ؟ لمـاذا ؟ و بدت له الدنيا كلها والحياة نفسها فكاهة كبيرة سخيفة لا معنى لها . ورفع عينيه عن المـاء ونظر إلى السماء وتذكر مرة أخرى كيف أن الأقدار فى صورة امرأة مجهولة قد داعبته على غير انتظار ، وتذكر أحلامه وما تراءى له من صور فى الصيف ، و بدت له حياته تافهة بائسة خالية من البهجة ....

ولما عاد إلى المعسكر لم يكن أحد من زملائه فيه ، وأخبره الجندى أن الضباط قد ذهبوا كلهم إلى القائد « فونترابكين » الذى أرسل لهم فارسا يدعوهم إليه . . . وسرى شعور من الفرح إلى قلب ريابوفتش دام لحظة قصيرة ، لـكنه كبته فى الحال وكأنما أراد أن يعاند القدر الذى عامله هذه المعاملة القاسية ، فمضى إلى فراشه بدلا من أن يذهب إلى بيت القائد .

— ٥ —

رسالة من الدار الآخرة

للكاتبة الأمريكية إدث وارتن ١٨٦٢ —

[من أشهر كاتبات المسرحيات والقصص القصيرة الأمريكيات وتمتاز بقدرتها العجيبة على خلق الجو اللائم لمسرحياتها وقصصها وعلى إظهار البواعث الكامنة وراء أعمال أشخاص رواياتها ؛ وهى من أجل ذلك فى بارعة كتابة القصص التى تنطوى على تيارات روحية كالقصة التالية] .

وقفت شارلوت أشبى على درج منزلها وقد خيم الظلام فطغى على ضياء عصر أيام مارس البهيجة . وكانت شوارع المدينة تفيض مرحا وحياة . ولكنها ولت ظهرها عن هذا كله ووقفت هنيهة فى الرحبة العتيقة ذات الأرض الرخامية قبل أن تضع المفتاح فى القفل . وكانت السجف المسدلة على مصراعى الباب تحجب الأنوار عن داخل الحجرة فلا يستطيع الإنسان أن يتبين ما فيها مفصلا .

وقد كانت فى أثناء الشهور الأولى من شهور زواجها بكنث أشبى تتوق إلى أن يعود زوجها فى تلك الساعة إلى بيتهما الهادىء القائم فى شارع قد هجره من زمن طويل رجال الأعمال والحياة الجديدة . وكان يثيرها ويهز مشاعرها على الدوام ما تراه من فرق عظيم بين صخب الحياة وضجيجها فى نيويورك وأنوارها المتلألئة البراقة وما تزدحم به طرقاتها من حركة سريعة ثقيلة على النفس مؤلمة لها ، وما فيها من مبانى ضخمة غاصة بساكنيها ، وحياة سريعة وعقول نشطة وثابتة ، بين ذلك كله وبين هذا المأوى المقدس الذى تسميه مسكنا . فها هى ذى قد وجدت أو خيل إليها أن قد وجدت فى قلب هذه العاصفة الهوجاء جزيرتها الصغيرة الهادئة . كانت هذه

هى الحال فى الأشهر الأولى ، أما فى الأشهر الأخيرة فقد تبدل كل شىء ، وأضحت إذا أرادت أن تدخل دارها ترددت كثيرا وهى على درج المدخل ، وكان لا بد لها أن ترغم نفسها على الدخول إرغاما .

واستعادت فى ذاكرتها وهى واقفة فى ذلك المكان منظر الدار من داخلها ؛ الردهة وعلى جدرانها الصور القديمة ، والدرج الشبيه بالسلم الخشبى ، ومكتبة زوجها الرثة عن شمالها وقد ملئت بالكتب وقصبات التدخين والكراسى الساندة القديمة التى تبعث على التفكير . وما أشد ما كانت تحب هذه الحجرة ! . وعادت إلى ذاكرتها فى الطابق الأعلى صورة حجرة استقبالها الخاصة التى لم يتغير فيها منذ وفاة زوجة كنث الأولى شىء من أثاثها أو سجفها ، لأن الأسرة لم تجد من المال ما يكفى لتغيير هذا الأثاث وهذه السجف ، ولكن شارلوت قد اتخذتها حجرة استقبال لها بتغيير مواضع أثاثها ، وإضافة بعض الكتب إلى محتوياتها ، ومصباح ونضد لوضع المجلات الجديدة عليه . وكانت شارلوت — حتى فى أثناء زيارتها الوحيدة لمسز أشبى الأولى — وكانت امرأة منطوية على نفسها تحب العزله عن الناس ، وكانت معرفتها بأشبى جد ضئيلة — نقول إن شارلوت كانت حتى فى أثناء هذه الزيارة الأولى تنظر إلى ما حولها نظرة حسد بريئة ، وتشعر بأن هذه الحجرة هى التى تحب أن تكون لها . وها هى ذى رغبتها قد تحققت منذ عام كامل ، وأضحت الحجرة ملكا لها تفعل فيها ما تشاء — وكانت هى الحجرة التى تعود إليها مسرعة وقت الغسق فى أيام الشتاء والتى تجلس فيها بجوار المدفأة تقرأ ما تحب من الكتب أو أمام المكتب تجيب عما يأتيها من الرسائل ، أو تصلح كراسات أبناء زوجها حتى تسمع وقع أقدامه وهو عائد إلى منزله .

وكان بعض الأصدقاء يزورونها أحيانا ، ولكنها كانت فى أكثر الأحيان تقضى وقتها بمفردها . وكانت هذه العزلة أحب شىء إليها لأنها طريقة أخرى

لوجودها مع كنث تفكر فيما قاله لها حينما افترقا فى الصباح وتتخيل ما سيقوله حين يصعد الدرج فيجدها بمفردها ، فيضمها بين ذراعيه .

أما الآن فانها قد استبدلت بهذا كله التفكير فى شيء واحد لا غير — ذلك هو الخطاب الذى قد تجده أو لا تجده على نضد الردهة ؛ ولم يكن عقلها يتسع للتفكير فى شيء غير هذا الخطاب حتى تتأكد من أنه على النضد أو ليس عليه . وكان هذا الخطاب ذا شكل واحد على الدوام — فكان غلافه مربعا ذا لون رمادى كتب عليه بأحرف كبيرة لكنها غير واضحة « حضرة المحترم كنث أشبى » . وقد أدهشها من أول الأمر أن يكتب إنسان بهذا الخط الكبير وأن تكون حروفه مع ذلك غير واضحة إلى هذا الحد . فقد كان العنوان يكتب على الغلاف ، وكأن صاحبه لا يجد ما يكفى من المداد ، أو كأن يد الكاتب كانت أضعف من أن تقوى على الضغط على القلم . وكان من الأمور العجيبة الأخرى أن الكتابة ، وإن كانت أقواسها أشبه بكتابة الذكور ، فإنها بوجه عام أشبه بكتابة الإناث . ذلك أن بعض الكتابات يمكن الحكم عليها من أول نظرة بأنها بخط الرجال ، وبعضها لا يستطاع تمييز جنس كاتبها على الإطلاق ، أما الكتابة التى على الغلاف الرمادى فلم يكن ثمة شك فى أنها كتابة أنثى رغم قوتها وكبر حروفها . لم يكن يكتب على الغلاف شيء سوى اسم المرسل إليه دون أن يذكر مع الاسم عنوان أو يوضع عليه طابع بريد كأن الخطاب يسلم باليد . ترى أى يد هى التى تسلمه ؟ وما من شك فى أن الخطاب كان يوضع فى صندوق المنزل ، ولعل الخادم كانت تخرجه منه بعد أن تغلق مصاريع الأبواب والنوافذ وتضيء الأنوار . ومهما تكن الطريقة التى يصل بها فإن شارلوت كانت فى كل مرة تجده على النضد فى المساء بعد أن تظلم الدنيا . وكانت حين تفكر فى الخطاب تفكر فيه بصيغة المفرد فتقول «هو» لأن ما وصل من الخطابات إلى المنزل كان على الدوام متماثلا فى مظهره ، وإن كان قد وصل

منها منذ زواجها عدد ليس بالقليل — سبعة على وجه التحقيق . و بفضل هذا التشابه امتزجت الخطابات كلها فى عقلها حتى أضحت خطابا واحدا تعبر عنه كلمة « هو » .

وقد وصل أول هذه الخطابات يوم أن عادت هى وزوجها من رحلة سافرا فيها لقضاء شهر العسل — تلك الرحلة التى سافرا فيها إلى جزائر الهند الغربية ثم عادا إلى نيو يورك بعد غيبة دامت أكثر من شهرين . فلما دخلت المنزل مع زوجها بعد أن مضى من هذه الليلة الأولى أكثرها — لأنهما تناولا العشاء فى بيت والدته — رأت هذا المظروف الرمادى وحده على نضد الردهة . ووقعت عينها عليه قبل عين كنث ، وكان أول ما جال بخاطرها هو تفكيرها فى أنها رأت تلك الكتابة من قبل ، ولكنها لم تستطع أن تستعيد فى ذاكرتها المكان الذى رأتها فيه . ولم يكن فى هذه الذكرى من الوضوح أكثر مما يكفيها لتعرف الخط كلما طالع عينيها من ذلك المظروف الشاحب . ولكنها فى هذا اليوم الأول بعد عودتهما لم تكن لتشغل بالها بالتفكير فى هذا الخطاب لولا أنها كانت من قبيل الصدف تنظر إلى زوجها حين وقع نظره عليه . وقد حدث ما حدث وقتئذ بسرعة البرق — فقد رأى الخطاب ، فمد يده إليه ورفعه أمام عينيه القصيرتى النظر لكى يحل رموز الكتابة الغيرالواضحة، وسحب من فوره ذراعه التى كانت من قبل فى ذراع شارلوت ، واتجه نحو الضوء وأدار ظهره إليها . وانتظرت هى — انتظرت لعلها تسمع منه صوتاً أو صراخاً ؛ انتظرت أن يفض هو غلاف الخطاب ، ولكنه لم يفعل بل وضعه خلسه فى جيبه دون أن ينبس ببنت شفة . ثم تبعها إلى المكتبة ، وجلسا معا بجانب النار ، وأشعلا لفافتى تبغ ، وظل هو صامتاً ورأسه ملقى على مسند كرسيه وهو غارق فى أفكاره ، وعيناه تتطلعان إلى الموقد ، ثم مسح بيده جبهته وقال: « ألم يكن بيت أمى أشد حرارة من المعتاد فى هذه الليلة ؟ إن رأسى يكاد يتحطم من شدة الصداع . أيسوؤك أن آوى إلى فراشى الآن ؟ »

هذا ما حدث في المرة الأولى . ومن ذلك الوقت لم تكن شارلوت معه حين يتسلم الخطاب . فقد كان هذا الخطاب يجيء إلى المنزل عادة قبل أن يأتي هو من محل عمله ، وكانت هي تتركه حيث هو وتصعد إلى الطابق العلوي من المنزل . على أنها حتى إذا لم تره فإنها كانت توقن أنه قد تسلمه ، وذلك لما كان يبدو على وجهه من تغير شديد حين يلقاها — وقلما كان يلقاها في تلك الليالي قبل أن يجلسا حول مائدة العشاء ؛ وما من شك في أنه كان يريد أن يختلي بنفسه ليتدبر في أمر الخطاب أياً كان ما يحتويه . وكان حين يلتقي بزوجته بعد وصوله يبدو كأنه قد كبر عما كان قبل عدة سنين ، وكأنه قد فارقته شجاعته وحيويته ، وكأنه لا يكاد يحس بوجود زوجته إلى جانبه . وكان في بعض الأحيان يظل صامتاً بقية الليل ، فإذا ما نطق بشيء كان ما ينطق به عادة هو أن يوجه بعض النقد لطريقة ترتيبها المنزل ، أو يعرض عليها بعض التغيير في إدارته ، أو يسألها وهو مضطرب الأعصاب ألا ترى أن مربية جويس صغيرة السن طائشة ، أو أنها هي نفسها تعنى على الدوام ببطرس فتلفه لفاً جيداً بملابسه قبل خروجه إلى المدرسة لأنه ضعيف الجسم سريع التأثر بتقلبات الجو . وكان يعود إلى ذاكرتها في هذه الأوقات ما نصحها به أصدقاؤها حين خطبت إلى كنت أشبي ، فقد قالوا لها : « إنك ستتزوجين رجلا أرمل كسير القلب، وتتعرضين بذلك لكثير من الخطر. إنك تعرفين أن إلزى أشبي كانت تسيطر عليه كل السيطرة» . فكانت تجيبهم مازحة : « قد يسره أن تتبدل حاله بعض الشيء فيستمتع بقسط من الحرية » . ولقد كانت في قولها هذا صادقة . فلم تكن في حاجة إلى أن يقول لها أحد في الأشهر الأولى من زواجها إن زوجها كان سعيداً بها . ولما أن عادا من شهر العسل الطويل قال هؤلاء الأصدقاء أنفسهم : « ماذا فعلت بكنث ؟ إنه يبدو أصغر مما هو بعشرين عاما » ، فكانت في هذه المرة تجيبهم في مرح وفي غير مبالاة : « أظن أني أخرجته من محزة ».

ولكن الذى كان يلفت نظرها بنوع خاص ، بعد أن بدأت هذه الخطابات الرمادية تصل إلى يديه ، لم يكن محاولته أن يوجه النقد إليها — وكان يبدو لها على الدوام أنه يفعل هذا على الرغم منه — بل كان نظرات عينيه حين يلقاها بعد أن يتسلم أحد هذه الخطابات . لم تكن هذه النظرات تنم عن كره لها بل إنها لم تكن تنم حتى عن عدم مبالاة بها ؛ وإنما كانت نظرات رجل طال ابتعاده عن حوادث الأيام العادية ، حتى إذا عاد إلى ما ألف من أحوال العالم بدت له هذه الأحوال غريبة عنه . وهذا هو ما كان يعنيها أكثر من تنقيبه عن أخطائها .

ولقد أدركت من أول الأمر أن الخط الذى كتب به ما على الغلاف خط امرأة ، ولكنها لم تربط بين هذه الرسائل الغامضة العجيبة و بين أية عاطفة سرية إلا بعد زمن طويل . ذلك أن ثقتها بحب زوجها لها ، و بأنها تملأ فراغ قلبه وحياته ، كانت أكبر من أن تسمح لهذه الأفكار أن تجول بخاطرها . وخيل إليها أن هذه الرسائل التى لم تبعث فى نفسه على ما كان يبدو لها شيئاً من الغبطة العاطفية كانت موجهة إليه بوصفه محاميا أكثر مما كانت موجهة إليه بوصفه شخصاً عادياً . وأكبر الظن أنها جاءته من عميلة متعبة — وكثيراً ما قال لها إن النساء عميلات متعبات على الدوام — لا تريد أن تفض رسالاتها أمينة سره . ومن أجل ذلك كانت ترسلها إليه فى منزله . فاذا صح هذا فإن هذه السيدة تكون عميلة متعبة للغاية ، إذا حكمنا على ذلك بما تحدثه رسائلها من الأثر فى نفسه . يضاف إلى هذا أنه لم ينطق أمام شارلوت فى ساعة من ساعات انبساطه بكلمة واحدة تنم عن ضيق صدره بهذه المرأة التى لا تفتأ تنغص عليه راحته من أجل قضية خسرتها . لقد أفضى هو إلى شارلوت ببعض معلومات تكاد تكون من أسرار المهنة — وإن لم يبح لها طبعا بأسماء من تخصهم أو بتفاصيل قضاياهم . أما كل ما يتصل بهذا الخطاب فإنه لم يبح لها عنه بكلمة واحدة ، بل طوى عليه صدره .

على أنه قد يكون فى الأمر احتمال آخر ، وهو ما يطلق عليه الناس من قبيل التظرف « ارتباكات قديمة » . ولقد كان لشارلوت أشبى مثل هذه الارتباكات من قبل ، ولم تكن تجهل دخائل قلوب الناس ، وكانت تعرف أن الرجال والنساء كثيرا ما يتورطون فى سن الشباب فى صلات تؤدى فيما بعد إلى هذه الارتباكات القديمة ؛ ولكنها تذكرت أنها حين تزوجت كنث أشبى لم يشر أحد من أصدقائها إلى احتمال وجود « ارتباكات له قديمة » بل قالوا لها : « لقد ذللت أمامك الصعاب، ونحن لم نر كنث ينظر إلى امرأة أخرى من يوم أن رأى إلزى كوردر؛وقد كان طوال سنى زواجه بها أشبه بالمحب غير السعيد منه بالزوج القانع المستريح ؛ ولن يسمح لك بأن تحركى مقعداً من مكانه أو تغيرى موضع مصباح، ومهما فعلت فسيوازن فى عقله بينه و بين ما كانت تفعله إلزى لو أنها كانت فى مكانك » .

لكن هذه النذر لم يتحقق منها شىء على الإطلاق إذا استثنينا ارتيابه القليل أحيانا فى مقدرتها على تدبير شئون الأطفال ، وهو ارتياب بددته شيئا فشيئا بفكاهتها الظريفة ، و بما أظهره الأطفال من حب شديد لها . وقد وقع هذا الرجل الأرمل المسكين الذى قال عنه أقرب أصدقائه إنه لا شىء يحول بينه و بين الانتحار بعد وفاة زوجته الأولى إلا انهماكه فى الأعمال الخاصة بمهنته — وقع هذا الرجل بعد عامين من وفاتها فى حب شارلوت جورس ، فتودد إليها وخطبها ، ثم تزوجها وقضى معها شهرا فى بعض البلاد الاستوائية . ولقد ظل من ذلك الوقت لم ينقص حبه لها عما كان عليه فى تلك الأسابيع البهجة الأولى . وكان قبل أن يعقد زواجه عليها قد كشف لها صراحة عن حبه الشديد لزوجته الأولى ، وعما اعتراه من اليأس بعد موتها المفاجىء ، ولكنه حتى فى ذلك الوقت لم يكن يتحدث إليها وهو كسير القلب ، ولم يكن يفترض أن الحياة غير كفيلة بأن تبدد أحزانه وتعيد إليه مباهجه . وعاش معها من ذلك اليوم عيشة بسيطة طبيعية ، وأقر لها بأنه كان من بداية الأمر يأمل أن

يكشف له المستقبل عن متع جديدة . ولما عادا بعد زواجهما إلى المنزل الذى قضى فيه مع زوجته الاولى اثنتى عشرة سنة كاملة ، قال لشارلوت إنه يأسف ألا تمكنه موارده من أن يحدث فى المنزل تغييرا كبيرا من أجلها ، ولكنه يعرف أن لكل امرأة آراءها الخاصة فيما يجب أن يكون عليه أثاث منزلها وفى أشياء كثيرة من نظامه مما لا يلاحظه الرجل نفسه . وطلب إليها أن تغير فيه ما شاءت دون أن تكلف نفسها عناء استشارته ، ولهذا فإنها لم تحدث فى المنزل إلا أقل ما تستطيع من التغيير . ولكن الطريقة التى بدأ بها حياته الجديدة فى جو المنزل القديم كانت صريحة خالية من الارتباك ، اطمأنت لها من فورها ، وكان يؤلمها أن وجدت صورة إلزى أشبى التى كانت معلقة فوق المكتب فى حجرة المطالعة قد نقلت فى أثناء غيابهما إلى مخدع الأطفال . ولما كانت تعلم أنها هى السبب الغير المباشر فى رفع الصورة من مكانها الأول ، فقد تحدثت فى ذلك إلى زوجها ، ولكنه رد عليها بقوله : « أظن أنه ينبغى للأطفال أن يكبروا وهى تطل عليهم من فوقهم » . وأثر هذا الرد فى شارلوت وأرضاها ، حتى اضطرت فيما بعد أن تقر بأنها أضحت أكثر اطمئنانا فى منزلها ، وأكثر راحة ، وأقرب إلى قلب زوجها وإلى ثقته بها ، بعد أن لم يعد هذا الوجه الجميل الخالى من حرارة الحياة والذى كان معلقا على جدران غرفة المطالعة يتتبعها بعينيه الحذرتين . وبدا لها كأن حب كنث إياها قد نفذ إلى السر الذى لم تكد هى تعترف به لقلبها — وهو حاجتها القوية لأن تشعر نفسها بأنها المسيطرة على ماضيه نفسه .

لقد تجمعت لها هذه السعادة كلها لتحبب إليها حياتها الزوجية ، ولكن من أعجب الأمور أنها وجدت نفسها فى الأيام الأخيرة وقد استولى عليها قلق عصبي شديد لم تستطع أن تتخلص منه . وفى ذات مساء ألفت نفسها عاجزة عن مقاومة هذا الشعور ؛ وقد يكون هذا لأنها كانت متعبة أكثر من عادتها ، أو لأنها قد ضايقها

عجزها عن أن تجد طاهيا جديدا ، أو لعل هناك سبباً تافها سخيفا ماديا أو معنويا حتى أمره عليها . وسارت نحو منزلها ومفتاح الباب فى يدها ، وأخذت تتلفت إلى الشارع الغاص بالخلائق من ورائها ، و إلى السماء التى بدأت تتلألأ فيها أضواء المدينة المسائية، وقالت فى نفسها : « إن فى الخارج ناطحات سحاب ، و إعلانات ومسرات ، و إذاعات ، وطائرات ، وصوراً متحركة ، وسيارات ، وكل ماجاء به القرن العشرون من مخترعات . ومن داخل البيت شىء لا أستطيع أن أفسره ، ولا أن أجد رابطة بينه و بين ما فى خارجه : شىء قديم قدم العالم ، غامض غموض الحياة .. ياللسخف! ماهذا الذى يشغل بالى و يقلق خاطرى ؟ لقد مضت ثلاثة أشهر لم يأت فيها خطاب — أى منذ اليوم الذى عدنا فيه من الريف بعد عيد الميلاد ... ومن أعجب الأشياء أنها لا تأتى فيما يبدو لى إلا بعد أيام الإجازات ! ولم يا ترى أتصور أن سيصلنا واحد منها فى هذه الليلة ؟ »

لم يكن ثمة سبب يحتم وصوله ، ولكن أسوأ ما فى الأمر — أو لعله من أشد الأمور سوءاً — أن كانت تمر بها أيام تقف فيها أمام الباب وهى ترتجف من شدة البرد ، وكأن نذيراً ينذرها بأنها ستجد من وراء الأبواب المغلقة شيئاً لا تستطيع فهمه ولا تستطيع احتماله ، فإذا ما فتحت الباب ودخلت الدار فإنها لا تجد شيئاً . ثم تأتى عليها أيام أخرى تشعر فيها بمثل هذا الشعور المنذر ، وتتحقق فيها مخاوفها ، فترى أمامها المظروف الرمادى ؛ ومن أجل هذا فإنها مذ رأت الخطاب آخر مرة أمست تشعر بهذه القشعريرة ، وتعاودها النذر فى كل ليلة ، فلا تفتح الباب من غير أن تفكر فى أنها قد ترى الخطاب على النضد .

وضاق صدرها بهذه الحال ، ولم تعد تحتمل منها مزيداً ؛ فإذا كان زوجها يمتقع لونه و يتصدع رأسه فى كل يوم يتلقى فيه هذه الرسائل فإنه يبدو عليه بعدئذ أنه قد تغلب على هذه الحال ، أما هى فلم يكن ذلك فى مقدورها ، حتى لقد أصبح ما تعانيه

من توتر فى أعصابها مرضا مزمنا . ولم يكن ليصعب عليها أن تعرف سبب هذا ؛ ذلك أن زوجها يعرف مرسل الخطاب ، ويعرف ما فيه ، وهو مستعد قبل وصوله إليه أن يبحث موضوعه ، ويعالجه ، فهو المسيطر بنفسه على الموقف مهما يكن فيه من شر ؛ أما هى فتجهل كل شىء ، وليس أمامها إلا طريق الحدس والتخمين .

وصاحت وهى تدير المفتاح فى القفل : « إنى لا أطيق هذا لا أطيقه بعد اليوم. » ثم فتحت الباب ودخلت البيت فإذا الخطاب على النضد،

وكاد يسرها منظر الخطاب ، فقد خيل إليها أنه يبرر كل شىء ، وأنه يوضح هذا الأمر الغامض كل الوضوح ، ويحدده أتم التحديد ، فها هو ذا خطاب مرسل إلى زوجها ، خطاب من سيدة — وما من شك فى أنه حالة حقيرة أخرى من حالات « الارتباكات القديمة » . وما كان أسخفها إذ تشك فى هذا الأمر ، وأن تجهد نفسها فى البحث عن تفسيرات أقل من هذا التفسير وضوحا ! وأمسكت المظروف بيد ثابتة وبدت فى وجهها علائم الاحتقار ، وحدقت فى الحروف الحائلة بعض الوقت، ثم رفعته أمام ضوء المصباح ، ولكنها لم تتبين أكثر من أطراف الورقة المطوية من داخله . وأدركت من فورها أنها لن يقر لها قرار حتى تعرف ما هو مكتوب فى تلك الورقة المطوية .

ولم يك زوجها قد جاء إلى المنزل بعد لأنه قلما كان يعود من عمله قبل منتصف الساعة السابعة أو فى تمامها ، ولم تكن الساعة السادسة قد حانت بعد . وإذن فقد كان لديها من الوقت ما يكفى للانتقال بالخطاب إلى حجرة الاستقبال فتعرضه للبخار المتصاعد من غلاية الشاى ، وقد كان من عادتها أن تضع الماء فى هذه الغلاية فى تلك الساعة استعدادا لعودة زوجها ، وبهذه الطريقة تستطيع أن تصل إلى السر الخفى ، ثم تعيد الخطاب إلى الموضع الذى وجدته فيه ، ولن يعرف أحد ما فعلت ، وسيزول ذلك القلق الذى يقض مضجعها . ولم يكن أمامها سبيل أخرى لمعرفة الحقيقة

إلا أن تسأل عنها زوجها ؛ ولكن قيامها بهذا العمل أصعب عليها من العمل الأول .
وأخذت تزن الخطاب بين سبابتها وإبهامها ، وتحدق فيه مرة أخرى أمام الضوء ، وصعدت الدرج ومعها المظروف — ثم نزلت مرة أخرى ووضعته على النضد .

وقالت وقد تملكها شعور اليأس : « لا ، لا شك أنى لا أستطيع » .

فماذا تفعل إذن ؟ إنها لا تستطيع الآن أن تصعد وحدها إلى تلك الحجرة الدفئة المريحة ، فتصب لنفسها الشاى ، وتطلع على ماجاءها من الرسائل ، ثم تلقى نظرة على كتاب أو مجلة — لا تستطيع ذلك ما دام هذا الخطاب على النضد فى الطابق الأسفل ، وما دامت تعرف أن زوجها سيأتى بعد قليل ، ويفض غلافه ، ثم يسرع وحده إلى المكتبة كما يفعل فى كل يوم يصله فيه هذا المظروف الرمادى .

ثم استقرت فجأة على رأى . إنها ستنتظر فى المكتبة وترى بنفسها مايحدث ، ترى ماذا عسى أن يحدث بينه وبين الخطاب حين لا يظن أن أحداً يراقبه ؟ وأدهشها ألا يمر هذا الخاطر بعقلها قبل الآن ، وقالت فى نفسها إنها إذا تركت الباب مفتوحا قليلا وجلست فى ركن وراءه كان فى وسعها أن تراقبه دون أن يراها هو .... وإذن فهى تستطيع أن تراقبه . وما أن استقرت على هذا الرأى حتى أخذت بيدها مقعدا ووضعته فى ركن قريب وجلست تنتظر ، وعيناها ترقبان فتحة الباب .

وكان مبلغ علمها أن هذه هى المرة الأولى التى حاولت فيها أن تفاجئ إنسانا بأنها عرفت سره ، ولكنها وهى توشك أن تفعل هذا لم تحس بشىء من وخز الضمير ، بل كانت تشعر كأنها تشق طريقها خلال ظلام خانق يجب عليها أن تشق طريقها فيه ، مهما كلفها هذا من تضحية .

وأخيرا سمعت مفتاح كنت يدور فى الباب ، وقفزت من مكانها مذعورة ، وكادت تندفع من مكانها لملاقاته ناسية سبب وجودها حيث هى . ولكنها تذكرت ذلك فى الوقت المناسب فعادت إلى الجلوس . وكان فى وسعها أن ترقب من موضعها

حركاته كلها — فرأته يدخل الردهة ، ويخرج المفتاح من الباب ، ويخلع قبعته ومعطفه ، ثم يلتفت يريد أن يضع قفازيه على نضد الردهة . فيقع نظره فى تلك اللحظة على المظروف . وسقط الضوء على وجهه وكان أول ما لاحظته شارلوت هو نظرة الدهشة البادية عليه ؛ واتضح لها من هذا أنه لم يكن يتوقع وصول الخطاب فى ذلك اليوم — بل لم يكن يفكر فى احتمال وصوله إليه. والآن وقد رآه أمامه فقد كان بلا ريب يعرف ما يحتويه ، وإن لم يكن يتوقع وصوله . ولم يفض الغلاف من فوره بل وقف فى مكانه جامداً مبهوتا ممتقع الوجه ، و بدا عليه أنه لا يستطيع أن يقنع نفسه بأن يمسه بيده . ولكنه أخيراً مد يده إليه وفض الغلاف وسار به نحو الضوء ، واتجه وهو يفعل هذا بظهره إلى شارلوت ، فلم تعد تر غير رأسه المطرق وكتفيه المنحنيتين إلى الأمام ، و بدا لها أن الكتابة كانت على صفحة واحدة ، وذلك لأنه لم يقلب الصفحة، بل ظل يحدق فيها زمناً طويلا حتى قرأها اثنتى عشرة مرة ، أو أن هذا هو الذى بدا للمرأة التى كانت ترقبه وقد حبست أنفاسها . ثم رأته أخيراً يتحرك من مكانه ، ويقرب الخطاب من عينيه كأنه لم يستطع طوال هذه المدة أن يقرأ كل ما فيه . ثم أطرق برأسه وأبصرت شفتيه تلثمان الورقة .

فصاحت من فورها وهى خارجة إلى الردهة : « كنث » !

فالتفت إليها زوجها والخطاب فى يده ونظر إليها ، وقال فى صوت منخفض ينم عن شدة ارتباكه وكأنه قد استيقظ تواً من نومه : « أين كنت ؟ »

فأجابته وهى تحاول أن تهدئ من روعها : « كنت فى المكتبة أنتظر قدومك، ما لى أراك مضطربا ؟ وماذا فى هذا الخطاب ؟ إنك ممتقع اللون » .

وكأن اضطرابها قد هدأ من روعه ، فوضع المظروف من فوره فى جيبه وضحك ضحكة خافتة وقال : « ممتقع اللون ؟ يؤسفنى هذا ؛ لقد أضنتنى كثرة العمل فى هذا اليوم إذ عرضت لى قضية معقدة أو قضيتان، وأظن أن علائم الإجهاد الشديد بادية على»

« لم تكن علائم الإجهاد بادية عليك حين دخلت البيت ، وإنما بدت حين فتحت ذلك الخطاب ! » .

وكان قد تبعها إلى المكتبة فوقف يحدق في وجهها وتحدق في وجهه . ولاحظت شارلوت أنه قد استعاد من فوره سيطرته على نفسه ؛ ذلك بأن مهنته قد علمته كيف يسيطر على وجهه وصوته . وأيقنت لساعتها أنها لن تفلح في أية محاولة تريد بها أن تعرف سره ؛ ولكنها في الوقت عينه فقدت كل ما كان لها من رغبة في اللف والمداورة والتحايل عليه حتى تعرف منه ما يريد أن يخفيه عنها .

نعم إنها لم تفقد قط رغبتها في النفاذ إلى هذا السر الغامض ، ولكنها لم تكن تبغى من وراء عملها هذا إلا أن تعينه على تحمل ما ينطوى عليه هذا السر من عبء يثقل كاهله ، وقالت في نفسها : « لأفعلن هذا ولو كان من وراء هذا السر إمرأة أخرى »

وقالت وقلبها يخفق خفقاناً شديداً : « أى كنث ! لقد تعمدت أن أقف في هذا المكان لكى أراك وأنت داخل ، ولأرقبك وأنت تفض غلاف هذا الخطاب » .

وما أن نطقت بهذه العبارة حتى احمر وجهه بعد أن كان ممتقعا ، ثم عاد فامتقع من جديد ، وقال لها : « هذا الخطاب ؟ ولم هذا الخطاب بنوع خاص ؟ » .

« لأنى لاحظت أنه كلما جاءك أحد هذه الخطابات كان له فيك أثر جد عجيب »

و بدا بين عينيه مظاهر من مظاهر الغضب لم تر مثله من قبل ، وقالت هى في نفسها : « إن الجزء الأعلى من وجهه جد ضيق ؛ وهذه أول مرة ألاحظ فيها هذا الضيق » .

وسمعته يواصل حديثه بالنغمة الهادئة الضعيفة الساخرة التى ينطق بها المحامى إذا وجد حجة قوية يأخذها على خصمه : « إذن فقد اعتدت أن تراقبى الناس وهم يفضون رسائلهم ولا يعرفون أنك تراقبينهم ؟ » .

« لم أعتد هذا ، ولم أفعل مثله من قبل ، ولكنى كنت مضطرة لأن أعرف

ما تكتبه لك فى فترات منتظمة وفى هذه المظاريف الرمادية » .

وفكر فى قولها هذا هنيهة ثم قال : « إن هذه الفترات لم تكن منتظمة » .

فأجابته وقد زايلها هدوؤها وثباتها عند سماعها النغمة التى كان يتحدث بها : « لا شك فى أنك كنت أحرص منى على معرفة تواريخ وصول الخطابات إليك ؛ وكل ما أعرفه أنك كنت فى كل مرة تتاقى فيها رسالة من تلك المرأة — » .

« ولماذا تفترضين أنها من امرأة ؟ » .

« إنها كتابة امرأة ، فهل تنكر هذا ؟ » .

فقال وهو يبتسم : « لا ، لست أنكره ، ولم أسألك هذا السؤال إلا لأن الناس يظنون بوجه عام أن الكتابة أقرب إلى كتابة الرجال منها إلى كتابة النساء » .

وسكتت شارلوت عن هذا القول وهى بادية الغضب وقالت : « وفى أى شىء تكتب إليك — هذه المرأة ؟ » .

و بدا مرة أخرى أنه يفكر ثم قال : « فى عمل من الأعمال » .

« أهو عمل قانونى ؟ » ،

« هو قانونى من بعض الوجوه ولكنه عمل عام » .

« أتعنى أنت بمصالحها ؟ »

« نعم » .

« وهل تعنى بها من زمن ؟ » .

« نعم من زمن جد بعيد » .

« وهل لك يا كنث ، يا أعز الناس علىّ ، أن تخبرنى من هى ؟ » .

« لا ، لاأستطيع » . وسكت ثم قال فى شىء من التردد : « إنه سر المهنة » .

وصعد الدم من وجه شارلوت إلى رأسها وصاحت : « لا تقل هذا — لا تقله »

« ولم لا أقوله ؟ »

« لأنى رأيتك تلثم الخطاب » .

وكان لهذه العبارة من الأثر السيء فى نفسه ما جعلها تندم على أن نطقت بها . ذلك أن زوجها ، وقد خضع من قبل لاستجوابها وهو هادئ هدوء من لا يعبأ بهذا الاستجواب ، كأنه يلاطف طفلا لا يعقل ، التفت إليها وقد بدت على وجهه دلائل الفزع والشقاء وظل بعض الوقت صامتاً كأنه عاجز عن الكلام ، ثم استجمع قواه بجهد جهيد وتمتم قائلا :

« إن الخط غير ظاهر ؛ وما من شك فى أنك قد رأيتنى أقرب الخطاب من عينى وأنا أحاول قراءته » .

« لا ، بل رأيتك تقبله » فلم يرد عليها بشىء وواصلت هى حديثها قائلة : « أتظن أنى لم أرك تقبله ؟ »

وبدا كأنه لا يعبأ بما قالت ، ثم أجابها بقوله « ربما كان هذا » .

« كنث ، أتقف فى هذا المكان وتقول ذلك — لى ؟ » .

« وماذا عسى أن يهمك من هذا ؟ إن الخطاب خاص بعملى كما قلت لك ؛ وهل تظنين أنى كاذب فيما أقول ؟ وكاتبة الخطاب صديقة لى قديمة لم أرها من زمن طويل »

« إن الرجال لا يقبلون الرسائل المتصلة بأعمالهم ، ولو جاءتهم من نساء كن صديقات لهم من زمن بعيد ، إلا إذا كن عشيقات لهم ، وكانوا هم لا يزالون يأسفون على فراقهن » .

وهز كتفيه قليلا ثم ولى مدبرا كأنه رأى أن النقاش قد انتهى ، وكأنه ساءه بعض الإساءة ما وصل إليه .

وخطت شارلوت نحوه وأمسكت بذراعه وقالت له : « كنث ! » .

ووقف وقد بدت عليه علائم التعب ووضع يده فوق يدها وسألها فى رقة وحنان « ألا تصدقيننى ؟ »

« وكيف أصدقك ؟ لقد راقبت وصول هـذه الرسائل إليك — وقد ظلت تأتيك من عدة شهور أى من اليوم الذى رجعنا فيه من جزائر الهند الغربية — فقد جاءتنى واحدة منها تحية لى فى اليوم الذى وصلنا فيه . وإنى لأرى ما تحدثه هذه الرسائل من أثر خفى عجيب فيك كلما جاءتك واحدة منها ، فأراك قلقا مضطربا شقيا كأن إنسانا ما يريد أن ينتزعك منى » .

« لا يا عزيزتى ، لا ، لن يحدث ذلك ، لن يحدث أبداً ! » .

وتراجعت قليلا ونظرت إليه نظرة حب واستعطاف وقالت له : « إذن فلتثبت هذا لى يا عزيزى ، وليس ذلك بعزيز عليك ! » .

وابتسم ابتسامة متكلفة وقال : « ليس من السهل أن يثبت الإنسان شيئا لامرأة إذا ما رسخت فى عقلها فكرة ما » .

« ليس عليك إلا أن تطلعنى على هذا الخطاب » .

وانسحبت يده من يدها وتراجع قليلا وهز رأسه » .

« إنك لا تريد أن تفعل هذا ؟ »

« لا أستطيع » .

« إذن فالمرأة التى كتبت الخطاب عشيقتك » .

« لا ، يا عزيزتى ، لا » .

« ربما لا تكون عشيقتك الآن — ربما ؛ أظن أنها تريد أن تستعيدك الآن ، وأنك تحاول التخلص منها رحمة بى ، مسكين يا كنت ! » .

« أقسم لك أنها لم تكن فى يوم ما عشيقتى » .

وأحست شارلوت بالدموع تنحدر من عينيها ، فقالت وهى ترفع يديها وتخفى بهما وجهها : « إذن فالأمر أسوأ مما كنت أظن ، أنه أمر ميئوس منه ! إن ذوات العقل هن اللاتى يحتفظن بسيطرتهن على الرجال ، وكلنا يعرف ذلك » .

وظل زوجها صامتا ، ولم يواسها أو ينفي شيئاً من أقوالها ، ثم مسحت هي دموعها آخر الأمر ورفعت عينها إلى وجهه ترقبها شيء من مظاهر الوجل وقالت :

« كنث » تدبر في الأمر : إن زواجنا قريب العهد جداً ، تصور ما تسببه لي من عذاب حين تقول إنك لا تستطيع أن تطلعني على هذا الخطاب ، وحين تأبى أن تفصح لي عن حقيقة أمره »

« لقد قلت لك إن الخطاب خاص ببعض أعمالي ، وأقسم لك أني صادق في هذا أيضاً »

« إن الرجل ليقسم على أي شيء إذا استطاع بقسمه أن يحمي امرأة . فإذا كنت تريدني أن أصدقك فلا أقل من أن تفصح لي عن اسمها ، فإن فعلت فإني أعدك ألا أطلب إليك أن تطلعني على الخطاب »

ومضت فترة طويلة لم ينبس فيها كلاهما ببنت شفة ، وشعرت هي في خلالها بدقات قلبها بين ضلوعها ، دقات قوية خيل إليها أن فيها نذيراً لها بالخطر الذي توشك أن تجره على نفسها .

ثم قال لها آخر الأمر : «لا أستطيع »

« لا تستطيع أن تبوح لي حتى باسمها »

« لا »

« ولا تستطيع أن تخبرني بشيء غير ما أخبرتني به ؟ »

« لا »

وساد السكوت مرة أخرى ؛ وبدا لها في هذه المرة أنهما قد وصلا إلى آخر ماعندهما من جدل ، وأنهما يواجهان بعضهما بعضا ومن بينهما بيداء من سوء الظن لا سبيل إلى اقتحامها

ووقفت شارلوت و يداها فوق صدرها وقلبها يخفق خفقاناً شديداً ، كما يخفق قلب المتسابق بعد أن جرى شوطاً بعيداً ولم يفلح فى الوصول إلى آخر السباق ، فقد كان غرضها أن تؤثر فى عواطف زوجها ولـكنها لم تفلح إلا فى مضايقته ، و بدا لها أن ما ارتكبته من خطأ فى التقدير قد بدله فصار إنسانا غريبا عنها ، غامضاً لا تستطيع أن تدرك مكنون ضميره ، ولا تستطيع أن تسبر غوره ولا يصل قلبه شىء من حججها أو توسلها . وأغرب ما بدا لها من أمره أنها لم تشهد لديه شيئاً من العداء أو نفاد الصبر ، وكل ما بدا لها هو تباعده وانطواؤه على نفسه ، وهما تباعد وانطواء يتعذر عليها أن تغالبهما . وأحست بأنه يتجاهلها و يخرجها من تفكيره ، بل يمحوها من مجرى حياته محوا تاما ؛ ولـكنها بعد لحظة أو لحظتين نظرت إليه وهى أكثر هدوءا فأدركت أنه لم يكن أقل منها عذابا ، ورأت وجهه ينم عن شديد الألم ، وأيقنت أن وصول المظروف الرمادى ، و إن كان يلقى عليه ظلا من الحزن والكآبة ، لم يؤثر فيه بمقدار ما أثر فيه هذا النقاش الذى جرى بينه و بين زوجته .

ثم استجمعت شارلوت شجاعتها ، فلعلها لم تلق بآخر سهم فى كنانتها ، واقتربت منه ووضعت يدها مرة أخرى على ذراعه وقالت له فى حنان : « مسكين يا كنث ! إنك لو عرفت مقدار حزنى وألمى مما أنت فيه »

وظنت أنه قد غمز بعينه قليلا حين سمع هذه العبارات الدالة على العطف ، ولـكنه أمسك بيدها وضغط عليها

فواصلت حديثها قائلة : « إن أسوأ ما أستطيع أن أفكر فيه هو عجزى عن أن أجعل حبى يدوم طويلا ، وأن أشعر بجمال حب عظيم ، وأن أكون متقلبة عاجزة عن تحمل عبئه » :

وألقى عليها نظرة فيها مزيج من اللوم والحب وقال : « لا ترمينى بهذه التهمة ، لا تقولى شيئاً عن التقلب ! »

وأحست أخيراً أنها سلكت الطريق السوى ، واضطرب صوتها من فرط التأثر حين واصلت حديثها قائلة : « إذن ما قولك فىّ وفى تلك المرأة الأخرى ؟ ألم تنس إلزى مرتين فى خلال عام واحد » ؟

وقلما ذكرت من قبل اسم زوجته الأولى ، فقد كان هذا الاسم لا يرد بطبيعته على لسانها . وقد قذفت به الآن كأنها تقذف فيما بينها و بين زوجها بكمية من المفرقعات الخطرة ، ثم تراجعت خطوة إلى الوراء كأنهاتنتظر انفجار هذه المفرقعات

بيد أن زوجها لم يتحرك ، و بدا الحزن على وجهه أشد مما كان ، ولكنه لم تظهر عليه دلائل الغضب وقال : «إنى لم أنس إلزى قط »

ولم يكن فى وسع شارلوت أن تكبت ضحكة خفيفة : « إذن ما أشقاك يا عزيزى بيننا نحن الثلاث ! »

و بدأ يقول : « ليس ثمة — » ثم سكت وأمسك بيده جبهته

« ليس ثمة ماذا ؟ »

« آسف كل الأسف ؛ ولست أظن أنى أعى ما أقول ؛ إن رأسى مصدع أشد التصديع » . والحق أن وجهه الممتقع المتجعد كان أقوى شاهد على صدق ما يقول ، ولكنها قد ساءها أن يروغ فى الإجابة عن سؤالها .

« أى نعم ، صداع المظروف الرمادى ، »

ورأت الدهشة بادية فى عينيه ثم أجابها فى فتور : « لقد نسيت أننى كنت أراقب عن كثب ؛ و إذا سمحت لى فإنى أحب أن أصعد إلى غرفتى وأقضى ساعة فى الظلام لعلى أستطيع أن أتخلص من هذه الآلام العصبية .

فترددت قليلا ثم قالت بعزيمة القانط : « يؤسفنى أن تكون مصدعا، ولكنى أحب أن أقول لك قبل أن تغادر هذا المكان إن هذه المسألة يجب أن تسوى بيننا

عاجلا كان ذلك أو آجلا . إن شخصاً ما يريد أن يفرق بيننا ، ولست أبالى ما ألاقى فى سبيل الكشف عن هذا الشخص » . قالت هذا وهى تحدق فى عينيه ثم واصلت حديثها قائلة . « وإذا فقدتُ فى ذلك حبك فإن هذا لايهمنى ، فإذا لم أكن أهلا لثقتك ، فلست أريد منك شيئاً ! » .

وظل هو ينظر إليها نظر المشفق ثم قال : « اصبرى علىَّ » .

« وعلام الصبر ، إنها كلمة تخرج من فيك » .

« اصبرى علىَّ حتى أبرهن لك أنك لم تفقدى حبى أو ثقتى » :

« هأنذا فى الانتظار » .

واتجه نحو الباب ثم عاد فألقى عليها نظرة فيها شىء من التردد وقال : « اصبرى علىَّ يا حبيبتى » ، ثم غادر الحجرة .

وسمعت وقع خطاه المتعبة على الدرج كما سمعت باب غرفة نومه فى الطابق العلوى يغلق . ثم استلقت على كرسى وطوقت وجهها بذراعيها . وكان أول ما أحست به تأنيب ضميرها ، فقد بدا لها أنها كانت قاسية القلب مجردة من الرحمة ، وأنها لم تفكر قط فيما ينجم عن قولها من عواقب ، وقالت لنفسها : هل كان يليق بى أن أقول له إنى لا أبالى أن تكون نتيجة إلحاحى عليه أن أفقد حبه ؟ إن هذا لكذب حقير . وهمت أن تصعد إلى غرفته وتزيل أثر هذه الألفاظ التى لامعنى لها ، ولكنها خطر ببالها خاطر منعها أن تنفذ عزمها . لقد كان له آخر الأمر ما أراد ، فراغ من كل هجماتها ومحاولتها كشف سره ، وها هوذا الآن وحده فى حجرته يقرأ رسالة تلك المرأة الثانية .

٣

وكانت لاتزال تفكر فى هذا حين جاءتها الخادمة تبحث عنها وهى بادية الدهشة ، وأجابتها شارلوت بقولها إنها لن تخرج إلى حجرة الطعام ، لأن مستر أشبى متعب

لايريد أن يتناول العشاء ، وقد صعد إلى حجرته ليستريح ، وسيطلب فيما بعد شيئاً من الطعام فى حجرة الاستقبال . ثم صعدت الدرج إلى غرفة نومها ، وكانت ملابس العشاء ملقاةعلى سريرها ، فلما رأتها استحوذ عليها نظام حياتهااليومية الهادىء الرتيب وخيل إليها أن الحديث العجيب الذى جرى توا بينها وبين زوجها قد حدث فى عالم آخر بين مخلوقين ليساهما شارلوت جورى وكنث أشبى بل صورهما لهاخيالها المحموم. وطافت بذا كرتها سنة زواجهاو إخلاص زوجها الدائم لها ، وما كان يظهره فى كل حين من عطف شديد عليها ، وما كان يشعرها به فى بعض الأوقات من أنه يعتمد عليها فى حياتها كل الاعتماد ، وأن قلبه ملتصق بقلبها وكأن الهواء نفسه لا يفصل بين روحه وروحها . وكلما تذكرت هذا كله خيل إليها أن أفظع الفظائع أن تتهمه منذ وقت قصير بأنه يدبر لها المكائد مع إمرأة أخرى ؛ ولكن ماذا — ؟

ثم أحست مرة أخرى بدافع قوى يدفعها إلى أن تصعد إلى غرفته وتعتذر وتحاول أن تزيل بضحكاتها ما شاب علاقاتهما من سوء فهم . ولكن منعها أن تفعل هذا خشية أن تقتحم عليه عزلته . فلقد كان هو قلقا مشتت الفكر شقياً ، يجثم على قلبه كابوس الحزن والخوف . هذا إلى أنه قد أشعرها بأنه يريد أن يغالب أحزانه بمفرده ، ومن الحكمة وعزة النفس أن تحترم هذه الرغبة . ولكن بدا لها أن من أعجب الأشياء وأثقلها على النفس أن تكون حيث هى فى الحجرة المجاورة لحجرته ، ثم تشعر أنها فى أبعد أطراف العالم ! وكادت فى اضطرابها العصبى أن تندم على أنها لم تؤت الشجاعة الكافية لتفض غلاف الخطاب وتتركه حيث كان على نضد الردهة قبل حضوره . ولو أنها فعلت هذا لاطلعت فى القليل على سره وعرفت مايضمره ، ذلك أنها قد بدأت وقتئذ تظن أن هذا السر كان أمراً مدبراً مقصوداً به إلحاق الأذى به ، وأنه كان اضطهاداً مستوراً ينخلع له القلب ، ولكنه لا يستطيع التخلص منه . وخيل إليها أنها لمحت مرة أو مرتين فى عينيه الزائغتين رغبة فى أن

تساعده ، وأنه قد هم بأن يفصح لها عما فى نفسه ، ولكنه سرعان ما حاجز نفسه عن هذه الرغبة وكبتها . وكأنه كان يحس أنها ستساعده لو أطلعها على خبيئة نفسه ، ولكنه كان مع ذلك عاجزاً عن أن يفصح لها عما فى قلبه !

وخطر لها فى تلك اللحظة خاطر سريع هو أن تطلع أمه على أمره . لقد كانت والدته شديدة الحب لزوجته الأولى ، وكانت سيدة ممتلئة الجسم ، ثاقبة النظرات ، كبيرة السن ، غير مجاملة أو مداجية فى حديثها ، تلتئم مع طبيعة شارلوت البسيطة الخالية من التكلف والمصانعة . وقد نشأت بينهـــا و بين شارلوت رابطة قوية ، مذ جاءت مسز أشبى الكبرى لتتغذى مع كنتها وقابلتها فى المكتبة ، فلما نظرت إلى مكان الصورة التى فوق مكتب ولدها ولم تر هذه الصورة قالت بأسلوبها المختصر المفيد : « أنقلت صورة إلزى ؟ » فلما أرادت شارلوت أن تشرح لها سبب نقلها قالت : « حسناً لا تعيديها إلى مكانها ؛ فلست أنت وزوجك فى حاجة إلى من يكون معكما » . وأدركت شارلوت ما تفكر فيه فلم تستطع أن تحاجز نفسها عن أن تبادلها ابتسامة تعلن بها موافقتها على ما تراه حماتها . وخيل إليها الآن أن صراحة مسز أشبى قد تعينها على اختراق ما يحيط هذا السر من غموض . ولكنها ترددت فى هذا أيضاً لأن تفكيرها فى إطلاع والدة زوجها على هذا الأمر يكاد أن يكون خيانة منها له . وأى حق لها فى أن تستدعى إنساناً ، و إن كان أقرب الناس إلى زوجها ، لتطلعه فجأة على سر يحاول أن يخفيه عنها هى ، وقالت فى نفسها : « ربما تحدث هو إلى أمه فى هذا الأمر فى الوقت المناسب » ولكنها قالت فى آخر الأمر : « وأى ضير فى هذا ؟ إن هذا الأمر يجب أن يسوى بيننا » .

وكانت لا تزال تفكر فى هذه المشكلة حين دق الباب ودخل عليها زوجها . وكان يرتدى ملابس العشاء و بدت عليه الدهشة حين رآها جالسة فى ذلك المكان بلاومس العشاء ملقاة على السرير .

وسألها : « ألا تعتزمين النزول ؟ »

فأجابت وهى تتلعثم فى أقوالها : « حسبت أنك متعب وأنك قد آويت إلى الفراش »

وابتسم ابتسامة متكلفة وقال : « لست على أحسن حال ، ولكن خير لنا أن ننزل إلى الطابق الأسفل» . و بدا وجهه الآن أهدأ مما كان حين فر إلى الطابق العلوى منذ ساعة واحدة و إن لم تفارقه آثار الكآبة .

وقالت هى فى نفسها . « تلك هى الحقيقة ، انه يعرف ما فى الرسالة ، وها هو ذا قد جاهد وانتصر أياً كان هذا الجهاد ، أما أنا فلا أزال أتخبط فى ظلام . ثم دقت الجرس وأصدرت أمراً سريعاً بأن يهيأ الطعام بأسرع ما يستطاع — وقالت إنها تريد وجبة بسيطة من أى طعام يستطاع إعداده على الفور ، لأنها هى ومستر أشبى متعبان بعض الشىء ، ولا يشعران بشدة الجوع .

وأعد الطعام وجلسا إلى المائدة ، وخيل إليهما فى بادىء الأمر أن ليس لديهما ما يتحدثان عنه . ثم بدأ أشبى الحديث وهو يتكلف الهدوء ولكن هدوءه هذا كان أثقل على نفسها من صمته .

وقالت شارلوت وهى تتبع سلسلة أفكارها بينما كان هو يتنقل فى حديثه من أخبار السياسة المحلية إلى أخبار الطيران ، ومعرض الرسوم الفرنسية الحديثة ، وصحة عمة له عجوز ، وتركيب مسرة فى سيارته : « ألا ما أشد تعبه ! ألا ما أشد تعبه وما أكثر ما يسببه له هذا التعب من آلام ! رباه ما أشد تعبه ! »

وكان من عادتهما كلما تعشيا وحدهما أن يذهبا إلى المكتبة عقب العشاء فتستلقى شارلوت على أريكة تشغل نفسها بالتطريز ، ويجلس هو على كرسى ساند تحت ضوء المصباح و يشعل قصبته . أما فى هذه الليلة فقد كان بينهما شبه اتفاق صامت على أن

بتجنبا الحجرة التى جرى فيها حديثهما العجيب ، وصعدا إلى حجرة الاستقبال الخاصة بشارلوت .

وجلسا بالقرب من المدفأة و بدأت شارلوت الحديث بعد أن صنع قدح القهوة ولم يكد يذوقه : « أتريد قصبة التدخين ؟ »

فهز رأسه وقال : « لا حاجة لى بها الليلة » .

« يجب أن تأوى إلى فراشك مبكراً ؛ إن علائم التعب الشديد بادية عليك ؛ ولست أشك فى أنهم يرهقونك بالعمل فى مكتبك »

« أظن أننا كلنا نرهق بالعمل أحياناً »

ثم انتصبت قائمة ووقفت أمامه وقد بدت عليها دلائل العزيمة فجأة : « لن أسمح لك بأن ترهق نفسك هذا الإرهاق الشديد ؛ هذا أمر لا يليق بك ، ولست أشك فى أنك مريض » . ثم انحنت نحوه ووضعت يدها على جبهته وواصلت حديثها قائلة : « مسكين يا كنث . يجب أن تعد نفسك للرحيل فى إجازة طويلة »

ونظر إليها فى دهشة شديدة : « إجازة ؟ »

« نعم ؛ بلا ريب ؛ ألم تعلم أنى كنت أرتب لك رحلة فى عيد الفصح ؟ ستبدأ بعد أسبوعين رحلة بحرية إلى مكان ما تدوم شهراً من الزمان » . ثم سكتت وانحنت أكثر من ذى قبل ومست جبهته بشفتيها وقالت له : « وأنا أيضاً متعبة يا كنث »

وخيل إليها أنه لم يعن قط بعبارتها الأخيرة ، بل جلس و يداه على ركبتيه ، وقد أبعد رأسه قليلا عنها ونظر إليها نظرة من يتوجس فى نفسه خيفة وقال : « إجازة ثانية ، لا يا عزيزتى إنا لا نستطيع ؛ لن أستطيع السفر » .

« لست أدرى يا كنث لم تقول ثانية ؟ إنا لم نستمتع بإجازة حقة فى هذا العام » .

« لقد قضينا فى عيد الميلاد أسبوعاً فى الريف مع الأطفال » .

« نعم ، ولـكنى فى هذه المرة أريد أن نكون بعيـدين عن الأطفال ، وعن الخدم ، وعن المنزل ، وعن كل شيء مألوف ومتعب . إن والدتك يسرها أن يكون معها چويس و بيتر » .

فقطب وجهـه ثم هز رأسه هزاً بطيئاً : « لا ، يا عزيزتى ، لا أستطيع أن أتركهما مع والدتى » .

« ولم يا كنث ؟ ما أعجب هذا القول وما أسخفه ! إنها تكاد تعبدهما عبادة ، وأنت نفسك لم تتردد فى أن تتركهما معها أكثر من شهرين حين سافرنا إلى جزائر الهند الغربية »

وزفر زفرة قوية ووقف وعلائم القلق بادية عليـه : « لقد كان الأمر حينذاك يختلف عنه الآن » .

« يختلف ؟ ولم ؟ » .

« أتصد أنى فى ذلك الوقت لم أكن أدرك — » ثم قطع حديثه كأنه يريد أن يختار ألفاظنا ، ثم واصله قائلا : « إن والدتى تكاد تعبد طفلى كما تقولين ؛ ولـكنها ليست على الدوام حصيفة فيما تعاملهما به ، وكثيراً ما تتلف الجدة الأطفال وهى تتحدث أمامهما دون تفكير فى بعض الأحيان » . ثم التفت الى زوجته وأشار إليها بيديه إشارة تكاد تكون توسلا منه إليها ، وقال : « بحقك لا تطلبي ذلك إلىّ يا عزيزتى »

وفـكرت شارلوت فى الأمر . نعم إن مسز أشبى الـكبيرة لا تتورع عن أن تنطق بكل ما تريد ، ولـكنها آخر امرأة فى العالم تقول شيئاً أو تلمح بشيء أمام أحفـادها يستطيع أشد الآباء حرصاً أن يجد فيه ما لا يصح أن يقال . ونظرت شارلوت إلى زوجها وهى بادية الحيرة : « إن الأمر مغلق علىَّ فلا أستطيع أن أفهم منه شيئاً » .

وظل ينظر إليها نظرة الشخص المتعب المتوسل ثم تمتم قائلا : « لا تحاولى » .

« لا أحاول أى شىء ؟ »

« لا تحاولى الآن — لم يحن الوقت بعد » ؛ ثم رفع يديه وضغط بهما صدغيه : « ألا ترين ألا فائدة ترجى من الإلحاح ؟ إنى لا أستطيع السفر مهما أكن فى حاجة إليه » .

وظلت شارلوت تلقى عليه نظرات فاحصة وقالت : « إن السؤال الذى أريد أن أعرف جوابه هو : « هل تريد السفر أو لا تريده ؟ »

ونظر إليها هنيهة ، و بدأت شفتاه ترتجفان ، وقال بصوت لا يكاد يسمع : « إنى أريد — أى شىء تريدينه؟ » .

« ومع ذلك » .

« لا تطلبى إلىّ أن أسافر ؛ فلن أستطيع السفر — لن أستطيعه ! »

« أتقصد أنك لا تستطيع أن تبتعد عن تلك الرسائل حتى لا تصل إليك ؟ »

وكان زوجها قبل أن تفوه بهذه العبارة يقف أمامها وقفة القلق المتردد بعض التردد ، أما بعد أن نطقت بها فقد أدار ظهره فجاءة إليها ، وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا مرة أو مرتين ، وهو مطرق برأسه ، وعيناه لا تتحولان عن النظر إلى الطنفسة.

وأحست شارلوت بأن غضبها يشتد كلما اشتدت مخاوفها ، وقالت فى إصرار شديد : « نعم ، هو ذاك ، فلم لا تعترف به ؟ إنك لا تستطيع أن تعيش بغير هذه الرسائل » .

وواصل هو خطاه المضطربة فى الحجرة ، ثم وقف فجاءة ، واستلقى على أحد المقاعد ، وغطى وجهه بيديه . وعرفت شارلوت من اهتزاز كتفيه أنه يبكى ، ولم تكن قد رأت من قبل رجلا يبكى إلا والدها عقب وفاة أمها حين كانت هى طفلة ؛ وكانت لا تزال تذكر حتى هذه الساعة ما استولى عليها من الخوف حين رأت ذلك المنظر . وعاد إليها ذلك الخوف نفسه فى هذه اللحظة ، وأحست أن زوجها يُستنزع

الآن منها ليكبل بأغلال خفية ، وأن عليها أن تستعين بكل ما بقى فيها من قوة للكفاح فى سبيل حريته وحريتها ؟

فأخذت تتوسل إليه وهى جاثية بجواره : « كنث — كنث ! ألا تستمع إلىّ ؟ ألا تريد أن ترى ما أعانيه من شقاء ؟ إنى لست ناقصة العقل ياعزيزى ؛ لا ! لست ناقصة العقل ؛ ولست أظن أنى كنت ألتفت قط إلى هذه الرسائل لولا ما شاهدته من تأثيرها فيك ؛ فليس من شيمتى أن أتجسس على شئون غيرى من الناس ؛ وحتى لو كان أثرها فيك غير ما رأيت — نعم ، نعم ؛ أنصت إلىّ — لو أننى رأيت أن هذه الرسائل كانت تدخل السرور على قلبك ، وأنك تترقب وصولها باشتياق ولهفة ، وتحسب الأيام التى تمضى قبل وصولها ، وأنك تريدها ، وأنها تهدى إليك شيئا لا أستطيع أنا أن أهديه إليك — نعم لو أننى رأيت هذا يا كنث ، فلست أدعى أننى كنت لا أتألم منه كما أتألم الآن ، ولكنى أقول إن ألمى كان فى تلك الحال يختلف عن آلامى الراهنة ؛ وإذن لأوتيت من الشجاعة ما أستطيع به أن أخفى ما أشعر به ، ومن الرجاء ما يجعلنى أترقب اليوم الذى تشعر فيه نحوى بمثل ما تشعر به نحو كاتبة الرسائل . ولكن الذى لا أطيقه قط هو أن أراك ترهب هذه الرسائل وأنها تعذبك عذابا أليما ، ومع ذلك فإنك لا تستطيع أن تعيش بدونها ، ولا تريد أن تسافر لئلا تضيع واحدة منها فى أثناء غيابك « ثم واصلت حديثها ، وقد استحال صوتها إلى صراخ الاتهام الصريح : « أولعلهاقد أمرتك ألا تسافر ، كنث ! إن عليك أن تجيبنى جوابا صريحا ! أذلك هو السبب ؟ هل تأبى السفر لأنها أمرتك ألا تسافر معى ؟ »

وظلت هى راكعة بجانبه ، ثم رفعت يديها وجذبته بلطف نحو الأرض . وبدا عليها الخجل من إصرارها هذا ، ومن أنها كشفت عن وجهها القلق المضطرب ، ولكنها مع ذلك قد اعتزمت ألا يحول شىء من هذه الآراء بينها وبين ما تبتغيه .

وخفض هو عينيه وارتجفت عضلات وجهه ، وأدركت ، أنها قد حملته يعانى من الآلام أكثر مما تعانيه هى منها ، ولكن هذا الشعور نفسه لم يمنعها أن تتابع قولها « كنث ! أهذه هى الحقيقة ؟ أهى التى تجعلك لا تريد أن نسافر معا ؟ » .

وظل هو صامتا لا يحول نظراته إليها ، وأحست هى بشعور الهزيمة يسرى فى جسدها ، وبأن الكفاح سينتهى آخر الأمر بهزيمتها فقالت له : « لا حاجة لى بالجواب فأنا واثقة من أنى على حق » .

ولما همت بالوقوف التفت إليها فجاءة وجذبها إليه مرة أخرى ، وأمسك يديها بيديه ، وضغط عليهما بقوة شعرت معها بأن خواتمها تغور فى لحمها . وكان فى قبضته ما يشعرها بأنه خائف مهتاج ؛ فقد كانت قبضة رجل يحس بأنه يوشك أن يتردى فى هاوية ، وأخذ يحدق فيها كأن خلاصه مما يعانيه إنما يأتيه من ذلك الوجه الذى يطل عليه . وقال بصوت منخفض مضطرب : « سنسافر معا بلا ريب ، سنسافر إلى أى مكان تريدين » . ثم طوقها بذراعيه وضمها إلى صدره ولثم شفتيها بشفتيه .

٤

وكانت شارلوت قد قالت لنفسها : «سأنام الليلة» ، ولكنها لم تنم بل ظلت جالسة أمام النار حتى الساعات الأولى من الصباح ، تنصت إلى أى صوت يأتيها من حجرة زوجها ، ولكن بدا لها أنه هو على الأقل يأخذ قسطه من الراحة بعد عاصفة المساء . وتسللت مرة أو مرتين إلى باب الحجرة وأطلت من ثقوبه مستعينة بضوء الطريق الشاحب الذى يدخل من نافذتها المفتوحة ، فرأته مستلقيا على فراشه غارقا فى نوم عميق — نوم الضعيف المنهوك القوى ، وقالت فى نفسها : « إنه مريض ، لاشك فى أنه مريض ، وليس سبب ضعفه أنه مرهق بالعمل ، بل سببه ما يلقاه من الاضطهاد الشديد » .

ثم تنفست الصعداء ؛ لقد جاهدت جهاد المستميت حتى انتصرت آخر الأمر — انتصرت على الأقل حتى اللحظة التي هي فيها ، وتمنت أن لو استطاعا أن يسافرا على الفور — يسافرا إلى مكان ما ؛ ولكنها كانت تعرف أن من العبث أن تطلب إليه أن يسافرا قبل العطلة ؛ وإلى أن يحين ذلك الوقت سيظل هذا السلطان الخفي — السلطان الذي لا تزال تجهل حقيقته كل الجهل — يعمل في غير مصلحتها ، وسيكون عليها أن تبدأ الكفاح من جديد ، وأن تواصله يوما بعد يوم حتى يبدأ سفرهما. أما بعد هذا السفر فستتبدل الأحوال ؛ فإذا استطاعت أن تبتعد بزوجها عن هذه الأرض وهذه السماء ، فإنها لا تشك لحظة في قدرتها على أن تنجيه من القوة السحرية التي تسيطر عليه ، وهدأ هذا التفكير عواطفها بعض الهدوء فاستغرقت هي أيضا في النوم آخر الأمر .

واستيقظت من نومها متأخرة عن موعد استيقاظها العادي كثيراً ، وجلست في سريرها وهي مندهشة غاضبة ، لأنها نامت هذا النوم الطويل . وكانت تحب على الدوام أن تنزل مبكرة إلى الطابق الأسفل لتشترك مع زوجها في الفطور إلى جوار النار في حجرة المكتبة ، ولكنها ألقت نظرة على ساعة الحائط فأدركت من فورها أنه لا بد أن يكون قد خرج إلى مكتبه من زمن بعيد . وأرادت أن تستوثق من هذا فقامت مسرعة من فراشها ، وذهبت إلى حجرته ، ولكنها وجدتها خالية . ولم تشك في أنه قد دخل عليها في حجرتها قبل أن يغادر البيت فلما رآها لا تزال نائمة نزل إلى الطابق الأسفل من غير أن يزعجها ، وكان في العلاقة القائمة بينهما من الحب ما جعلها تأسف لأنها حرمت من أن تستمتع بوجودها معه في ساعة الصباح .

ودقت الجرس وسألت الخادمة هل غادر مستر أشبي الدار ، فأجابتها بأنه خرج منذ ساعة تقريبا ، وأنه أمر قبل خروجه ألا توقظ مسز أشبي من نومها ، وألا يدخل ولداه عليها قبل أن ترسل هي في طلبهما ... نعم لقد ذهب بنفسه إلى مخدع الأطفال

ليصدر هذا الأمر ، و بدا لها هذا كله أمراً طبيعيا لا غرابة فيه ، ولم تكد تدرك لم سألت هذا السؤال : « ألم يترك مستر أشبي أية رسالة أخرى ؟! »

وأجابتها الخادمة بأنه ترك رسالة ، وأنها تأسف أشد الأسف لأنهـا نسيت أن تبلغها إياها ، وقالت إنه طلب إليها وهو خارج من الدار أن تبلغ مسز أشبي أنه ذاهب ليعد جوازى سفرهما ، وأنه يرجوها أن تستعد للسفر غداً .

ورددت شارلوت قول الخادمة « غدا ؟ » وجلست تحدق فيها وهي بين مصدقة ومكذبة «غداً ؟ — أأنت واثقة من أنه قال إننا سنسافر غداً ؟ »

« إني يا سيدتي واثقة من هذا كل الوثوق ؛ ولست أدرى كيف نسيت أن أذكر لك هذا من بادىء الأمر »

« فليكن ؛ إن هذا لا يهمني كثيراً ، أعدى لى الحمام من فضلك » . وقامت شارلوت من فورها وارتدت ملابسها مسرعة ؛ ولم تدر إلا وهي تغنى لصورتها فى المرآة بينما كانت تسرح شعرها . وأحست بأنها قد عادت فتاة صغيرة بعد هذا النصر المبين. وتضاءلت المرأة الأخرى حتى صارت كالذرة أمام هذه المرأة التى سيطرت الآن على مستر أشبي ، والتى أخذت تبتسم وهى تنظر إلى عينيها وشفتيها فى المرآة . إذن فهو يحبها — يحبها من كل قلبه حبا لا يقل عن حبه السابق لهـا . لقد أحس بما تعانيه من آلام ، وأدرك أن سعادتهما لاتكون إلا إذا سافرا على الفور ، وعرف كل منهما صاحبه مرة أخرى بعد ما ظلا فى الليلة الماضية يتحسس كلاهما الآخر فى الضبـاب . ولم تعد شارلوت الآن تبالى كثيراً بما عسى أن تكون تلك القوة التى فصلت بينهما . لقد واجهت هى ذلك الشبح وطردته من أمامها . وقالت لنفسهـا : « الشجاعة — ذلك هو السر ! لو أن المحبين لم يكونوا على الدوام يخشون أن يجازفوا بسعادتهم بمواجهة هذا الشبح الرهيب » . ولما فرغت من تصفيف شعرها الغزير رأته يتماوج فوق أسهار تماوج التيجان على رؤوس الأبطال المنتصرين ؛ ومر بخاطرها آنئذ أن من

النساء من عرفن كيف يسن الرجال ، ومنهن من لا يعرفن . وذكرت المثل المأثور القائل إن الشجعان وحدهم هم الجديرون بالحسان فعكسته حتى جعلته : إن الحسان وحدهن هن الجديرات بالشجعان ! وما من شك فى أنهـا وقتئذ كانت تبدو حسناء فاتنة .

وكان الصباح صحواً جميلا فأذكرها جمال البحر الذى توشك أن تركبه ، وأمرت أن يعد لها ولزوجها غذاء شهى ، وأرسلت الطفلين بنفسها إلى مدرستهما ، وأمرت أن يؤتى لها بحقائبها ، وأخذت تستشير خادمتها فيما يصح أن تأخذه معها من الملابس ، وهل يحسن أن تأخذ ملابس الصيف — لأنهما بطبيعة الحال سيذهبان حيث الحرارة وضوء الشمس — وبدأت تسائل نفسها هل يجب أن تخرج حلل كنث الصيفية لتأخذها معها . ثم عادت فقالت لنفسها : « أليس عجيباً ألا أعرف حتى الآن أين نحن ذاهبان ؟ » ونظرت إلى الساعة ورأت أنها قد اقتربت من الثانية عشرة وقررت أن تقاطبه تليفونياً فى مكتبه . ولم يجبها أحد على الفور ؛ ثم سمعت صوت أمينة سره تقول إن مستر أشبي حضر مبكراً ، ولكنه لم يمكث فى مكتبه بل غادره على الفور . وقالت لها شارلوت إنها ستتصل بها مرة أخرى بعد قليل ، ثم سألتها عن الزمن الذى سيقضيه فى خارج مكتبه . فأجابتها أمينة السر أنها لا تعرف هذا على وجه التحقيق وأن كل ما يعرفه من فى المكتب أنه قال وهو خارج منه إنه سيغادر المكان مسرعا لأنه مضطر إلى الذهاب إلى خارج البلدة .

خارج البلدة ! ووضعت شارلوت سماعة المسرة فى مكانها ، وجلست تحدق بعينيها فى الظلام . ترى لم ذهب إلى خارج البلدة؟ وإلى أى مكان ذهب ؟ ولم اختار اليوم السابق ليوم سفرهما الذى رتباه فجاءة دون سائر الأيام ؟ وأوجست فى نفسها خيفة ، وأحست برجفة تسرى فى جسمها . لا شك فى أنه لم يذهب إلى خارج البلدة إلا ليرى تلك المرأة — ليستأذنها فى السفر بلا ريب . لقد بلغ خضوعه لها هذا الحد؛

ومع ذلك فقد كانت شارلوت من الغفلة بحيث تظن أنها قد عقد لها لواء النصر . وضحكت ضحكة عالية ، ومشت قليلا فى الحجرة ، ثم عادت إلى الجلوس أمام مرآتها . وما أشد ما طرأ على وجهها من تبدل ! فقـد اصفرت شفتاها كأنهما تسخران من الشفتين الحمراوين اللتين كانتا لشارلوت من قبـل . ولـكن اللون عاد يسرى فيهما بعد قليل . لقد كان من حقها أن تظن أنها انتصرت، فها هو ذا زوجها يفعل ما تريده هى لا ما تحتمه عليه المرأة الأخرى . ولقد كان من الطبيعى بعد أن استقر رأيه فجاء على السفر غداً أن تكون لديه بعض الشئون يريد أن ينظمهـا ، أو بعض الأعمال الخاصة يريد أن ينتهى منها قبل سفره . ولم يكن من الضرورى قط أن تفترض ن رحلته العجيبة كانت لزيارة كاتبة الرسائل ، فلربما كان كل ما يبغيه من سفره أن يزور عميلا من عملائه يسكن خارج المدينة ؛ وكان من الطبيعى ألا يطلع أن فى المـكتب شارلوت على هذا ، فقد كانت أمينة السر تتردد قبل أن تفضى إليها بذمل الخبر النافه خبر غياب مستر أشبى . وستواصل هى استعدادها للرحيـل وهى مبتهلك مرحة ، راضية بأنها ستعرف فى أثناء النهار إلى أية جزيرة من جزائر السعداء ستنتقحم مع زوجها .

ومرت الساعات أو بعبـارة أصح قضت هى الساعات فى الاستعداد العاجل إلى الرحلة المرتقبة حتى دخلت عليهـا الخادمة آخر الأمر لتسدل الستائر ، فقطعت عليها عملها ، وأدركت لفرط دهشتهـا أن الساعة قد أوفت على الخامسة ، ومع ذلك فإنها لما تعرف أين يذهبان فى غد ، ودقت التليفون إلى مكتب زوجها فقيل لها إن مستر أشبى لم يعد إليه مذ خرج فى الصباح الباكر ، وطلبت شريك زوجها ولـكنه هو أيضاً لم يكن فى وسعه أن يزيد على معلوماتها شيئاً ، فقد وصل إلى المـكتب بعد أن نجاء مستر أشبي وخرج وذلك لأن قطار الضواحى قد تأخر عن موعده . وتحيرت شارلوت فى أمرها فلم تدر ما تفعل ، ثم قررت أن تدق التليفون إلى حماتها فقد بدا

لها أن أشبي لا بد أن يكون قد ذهب ليزور والدته بعد أن قرر السفر في غد . ولو لم يكن لديه من الأمور الا أن الطفلين سيبقيان مع جدتهما — رغم معارضته الغامضة لهذا البقاء — لكان لا بد له أن يذهب إليها ليتفق معها على أمور كثيرة . ولو كانت الظروف غيرها الآن لأحست شارلوت ببعض الألم لعدم اطلاعها على حديثه مع والدته بشأن الأطفال ، كأنها ليست موضع ثقتهما ؛ ولكنها الآن لم يكن يعنيها إلا أنها قد خرجت من النضال فائزة ، وأن زوجها لا يزال لها هي دون غيرها من النساء . ودقت التليفون إلى مسز أشبي وهي منشرحة الصدر واستمعت إلى صوتها الحنون ، و بدأت حديثها معها بقولها : « هل أدهشتك أخبار كنث ؟ وما رأيك في قرارنا ؟ »

وعرفت شارلوت لساعتها ، وقبل أن ترد عليها مسز أشبي ، ماذا ستجيب به . فهي لم تر ابنها ، وهو لم يكتب إليها شيئا ، ولم تعرف لما تقوله كنتها معنى . ووقفت شارلوت صامتة وقد أخذت عليها دهشتها كل مذاهب القول ، فلم تنبس ببنت شفة ، وقالت في نفسها : « إذن فأين ذهب ؟ » ثم تملكت عواطفها وأخذت تشرح لمسز أشبي قرارها الفجائي ، واستعادت في أثناء الشرح ثقتها بنفسها ويقينها بأن لا شيء يمكن أن يفرق مرة أخرى بينها و بين كنث . وتلقت مسز أشبي هذا النبأ بهدوء وأبدت ارتياحها إلى اعتزامها السفر ، وقالت إنها هي أيضا تظن أن كنث تبدو عليه علائم التعب والإجهاد ، وإنها توافق كنتها على أن تغيير المناظر خير علاج لمن كان في مثل حاله ، وأضافت إلى ذلك قولها : « إني لأرتاح أشد الارتياح حين يسافر إلى مكان ما ، ولقد كانت إلزى تكره الأسفار ، وكانت على الدوام تختلق المعاذير لعدم سفره إلى أي مكان ، و إني لأحمد الله أنك لست مثلها . » كذلك لم يدهش مسز أشبي أنه لم يجد متسعاً من الوقت يبلغها فيه نبأ سفرهما ، فما من شك في أنه منذ وطد العزم على السفر قد وجد ألا بد له من أن يسوي أموراً كثيرة على عجل ،

ولكنها لم تشك فى أنه سيمر عليها قبل العشاء . ولم تكونا فى حاجة إلى مواصلة الحديث أكثر من خمس دقائق . وكان مما قالته : « أرجوأن يكون فى وسعك أن تشفى كنت شيئاً فشيئاً من تلك العادة الجنونية عادة الأخذ والرد فى المسائل التى يستطاع الفصل فيها ببضع كلمات . ولم تكن هذه عادته من قبل ، و إذا كانت هذه العادة تلازمه فى أعمال مهنته فسيفقد لا محالة جميع عملائه بعد قليل . . . نعم ، أرجوك أن تأتى إلىَّ ياعزيزتى إذا وجد لديك متسع من الوقت نقضى معاً بضع دقائق ، وما من شك فى أنه سيجىء إلى وأنت عندى » وكانت نغمة مسز أشبى الحنونة تتردد صداها فى الحجرة الساكنة ، فيعيد الثقة والطمأنينة إلى نفس شارلوت فى أثناء استعدادها .

ودق التليفون حوالى الساعة السابعة فهرولت إليه وهى موقنة أنها ستعرف وقتئذ شيئاً عن زوجها ! ولكن الذى دق لم يكن إلا أمينة سره تقول إن مستر أشبى لم يعد ، ولم يرسل لهم أية إشارة ، وإنها رأت من واجبها قبل أن يغلق باب المكتب أن تبلغ ذلك إلى مسز أشبى . وردت عليها شارلوت وهى بسرور متكلف « حسن ، لاضير فى هذا ، وأشكرك كثيراً ! » ثم وضعت السماعة ويدها ترتجف من شدة الاضطراب ، وقالت فى نفسها إنه قد يكون عند والدته فى تلك الساعة . فما كان منها إلا أن أغلقت الأدراج وحقائب الملابس ، ولبست قبعتها ومعطفها ، ومرت بمخدع الأطفال لتقول لمن فيه إنها ستقضى فى خارج الدار بضع دقائق تزور فيها جدة الأطفال .

وكانت مسز أشبى تسكن بالقرب من منزلها ، وخيل إلى شارلوت وهى سائرة فى غسق ليل الربيع أن كل من تشاهده مقبلا نحوها هو زوجها ، ولكنها لم تلقه فى الطريق ، ولما دخلت دار حماتها وجدتها بمفردها ، وعرفت أن كنث لم يكلمها ولم يأت

إليها . وكانت مسز أشبي الكبرى تجلس بجانب نارها المشتعلة و إبر تطريزها تبرق في يديها النشيطتين ، وكان وجود شارلوت إلى جانبها كافيا لأن يبعث الطمأنينة في قلب الزوجة الشابة . ولكنها أحست مع ذلك بأن من أعجب الأشياء أن يغيب كنث النهار كله دون أن يقول كلمة عن سبب غيابه لأمه أو لزوجته. على أن هذا كان أمراً متوقعاً لأن المحامي الكثير العمل تقع على عاتقه أعمال كثيرة يضطر معها إذا ما غير نظامه فجاءة إلى أن يعيد ترتيب شئونه ، ويوفق بين مصالحه توفيقاً يستغرق منه كثيراً من الوقت ، لأنه لم يكن قد فكر فيه أو أعد له العدة من قبل ، ولعله ذهب لزيارة عميل له في ضاحية من ضواحي المدينة فاستبقاه العميل عنده ، وذكرت والدته أنه قال لها مرة إنه موكل في قضية لشيخ غريب الأطوار في نيوجرسي ، واسع الثراء ولكنه بخيل بخلا يحول بينه و بين أن يدخل التليفون في بيته . وما من شك في أن كنث قد ألقت به المقادير في ذلك المكان .

ولكن شارلوت أحست أن أعصابها تزداد اضطرابا ، ولما سألتها مسز أشبي عن ساعة سفرهما في غد اضطرت أن تقول لها إنها لا تعرف ، و إن كل مافعله كنث هو أنه أرسل إليها ليبلغها أنه ذاهب ليعد جوازي السفر ، وكان مجرد نطقها بهذه الألفاظ كافيا لأن يشعرها بغرابة موقفها ؛ بل إن مسز أشبي نفسها لم تجد بداً من القول بأن الأمر عجيب حقا ؛ ولكنها أضافت من فورها أن كل ما يدل عليه هو كثرة ما لديه من الأعمال واضطراره إلى أن يفرغ منها كلها بسرعة .

« ولكن الساعة يا أماه قد أوشكت أن تدق الثامنة ! وكان ينبغي له أن يدرك أن لا بد لي أن أعرف متى نبدأ سفرنا غداً »

« أكبر الظن أن السفينة لن تبحر إلا في المساء . والسفن تضطر أحيانا أن تنتظر المد حتى منتصف الليل ! وما من شك في أن كنث إنما يعتمد على هذا ، وهو رجل متزن العقل بلا ريب » .

ووقفت شارلوت وقالت : « لا ، ليس ذلك هو السبب ؛ إن حادثاً قد حدث له »
وخلعت مسز أشبي منظاريها ، وطوت خيوطها وقالت : « إنك إذا سمحت لنفسك بأن تفكرى مثل هذا التفكير — »

ألم يساورك شيء من القلق ؟ »

« إنى لا يساورنى قلق ما إلا إذا لم يكن منه بد . وأحب أن تدق الجرس وتطلبي العشاء ، فستبقين هنا حتى نتعشى معاً ؛ وما من شك فى أنه سيمر بنا وهو فى طريقه إلى المنزل » .

وأدارت شارلوت رقم تليفون منزلها . وأجابتها الخادمة بأن مستر أشبي لم يعد ولم يتحدث إلى المنزل ، وقالت إنها ستخبره متى عاد بأن مسز أشبي ستتعشى فى بيت والدته . ولحقت شارلوت حماتها إلى المطعم ، وجلست وهى فى شدة القلق أمام صحفتها الفارغة ، بينما كانت مسز أشبي تتناول طعامها القليل الأصناف الحسن الإعداد فى هدوء وفى شهية ، وقالت لها : « إن عليك أن تأكلى بعض الطعام ، وإلا صرت أسوأ حالاً من كنت ... نعم هات مقداراً آخر قليلاً من الأسفرغس ياجين » .

وأصرت على أن تتناول شارلوت كوبة من شراب منعش ، ثم عادت إلى حجرة الاستقبال حيث أشعلت الخادمة النار . ورتبت الوسائد التى كانت على كرسى مسز أشبي الساند ، و بدا لها المكان عادياً أميناً ؛ ولكن فى مكان ما خارج الدار ، وفى ظلام الليل وغموضه وخفاياه ، يستتر جواب بما تحدث به المرأتان نفسهما ، كأنه شبح غامض لا تدركان حقيقته يحوم حول عتبة الدار .

وأخيراً انتفضت شارلوت واقفة وقالت : « خير لى أن أعود إلى منزلى ؛ إن كنت لا بد أن يعود فى هذه الساعة إلى منزله مباشرة » .

وتبسمت مسز أشبي ابتسامة الموافقة على هذا الطلب وقالت : « لا نزال فى بداية الليل يا عزيزتى ؛ إن عصفورين مثلنا لا يحتاجان فى عشائهما إلى وقت طويل »

فأجابتها شارلوت : « إن الساعة قد جاوزت التاسعة » وانحنت لتقبل حماتها ثم أتمت حديثها قائلة : « والحق أنى لا أستطيع البقاء أكثر مما بقيت » .

ونحت مسز أشبى تطريزها ، ووضعت كلتا يديها على ذراعى كرسيها ، وقالت وهم تهم بالوقوف : « سأذهب معك » .

وعارضت شارلوت فى هذا ، وقالت إن الوقت متأخر ، وإن ذهابها غير ضرورى ، وإنها ستعود إليها متى وصل كنث إلى المنزل . ولكن مسز أشبى كانت قد دقت الجرس تستدعى خادمتها . وكانت تعرج قليلا فوقفت مستندة إلى عصاها بينما كانت الخادمة تأتى لها بمعطفها . فلما جاءت به قالت وهما تدخلان سيارة قد استدعيت لهما « إذا جاء مستر كنث فقولى له أن يلحق بنا فى منزله » . وبينما كانتا فى السيارة حمدت شارلوت الله أنها لم تعد إلى منزلها بمفردها . ذلك أن وجود مسز أشبى بقربها فى تلك اللحظة كان من شأنه أن يهدئ ثائرتها ويزيل بعض مخاوفها لأنها تجد فى بريق عينيها ونضارة وجهها ما يطمئنها . ولما وقفت السيارة عند باب الدار وضعت مسز أشبى يدها على يد شارلوت مشجعة ومطمئنة وقالت : « سترين أن فى البيت رسالة تنتظرك » .

وفتح الباب حينما دقت شارلوت الجرس ودخلت السيدتان وقلب شارلوت يدق دقاً عنيفاً . وكانت ثقة حماتها قد بدأت تتمشى فى أعصابها .

وكررت مسز أشبى قولها : « سترين — سترين » .

وقالت الخادمة وهى تفتح الباب إن مستر أشبى لم يأت بعد وإنه لم يبعث برسالة ما »

وقالت أمه : « أأنت واثقة من أن المسرة صالحة للاستعمال . ؟ »

فأجابتها الخادمة قائلة إنها واثقة من أنها كانت صالحة منذ نصف ساعة على الأكثر . وإنها ستذهب من فورها وتستوثق من هذا . وأسرعت إلى حيث كانت المسرة وأخذت شارلوت تخلع قبعتها ومعطفها ، وبينما هى تفعل هذا كانت عيناها التقتا

فوقع نظرها على نضد الردهة ، وإذا هى تجد عليها مظروفا رمادى اللون ، وعليه اسم زوجها مكتوب بحروف غير ظاهرة ، فصاحت ، وقد أدركت فجاءة أنهـا الآن قد دخلت الدار لأول مرة منذ عدة شهور دون أن تحدثها نفسها بأن مظروفاً رمادياً قد يكون على النضد .

وسألتها مسز أشبي وهى تنظر إليها فى دهشة : « ما هذا يا عزيزتى ؟ » .

ولم تنبس شارلوت ببنت شفة ، بل أخـذت الخطاب ووقفت تحدق فيه كأنها تريد أن تنفذ نظراتها إلى ما بداخـله . ثم خطر لها خاطر سريع فالتفتت وعرضت الخطاب على حماتها .

وسألتها : « أتعرفين هذا الخط ؟ »

وتناولت مسز أشبى الخطاب . وأخذت تبحث بيدها الأخرى عن منظاريها . ولما أن وضعتهما على عينيها رفعت الخطاب أمام الضوء . وصاحت : « يا عجبا » ثم صمتت . ولاحظت شارلوت أن الخطاب يرتجف فى يدها وهى فى العادة ثابتة مطمئنة ، وقالت مسز أشبى آخر الأمر بصوت منخفض . « ولـكن هذا الخطاب معنون باسم كنث » . ودلت نغمتها على أنها ترى أن السؤال الذى وجهته إليها كنتها سؤال فيه شيء قليل من عدم اللياقة .

فردت عليها شارلوت وقد حزمت أمرها فجاءة : « نعم ، ولـكن لا عليك من هذا ؛ فأنا أحب أن أسألك — هل تعرفين من كتب هذا ؟ » .

وأرجعت مسز أشبى إليها الخطاب وقالت بصوت واضح : « لا » .

وكانت السيدتان قد انتقلتا فى أثناء هذا الحديث إلى حجرة المـكتبة ، وأنارت شارلوت الحجرة ثم أغلقت الباب ، وكانت لا تزال تمسك الخطاب بيـدها وقالت لوالدة زوجها بصراحة إنها ستفض غلاف الخطاب .

فرأت الدهشة بادية فى نظراتها وهى تقول لها : « ولكن يا عزيزتى ، هذا خطاب لم يرسل إليك ؟ إنك لا تستطيعين أن تفتحيه» .

« آه ! كأن هذا يهمنى فى هذه الظروف ! » وكانت وهى تقول هذا لا تنفك تحدق فى عينى مسز أشبى . « قد أعرف من هذا الخطاب أين كنت الآن ! » .

وتبدلت نضارة وجه مسز أشبى على الفور وامتقع لونها وخيل إلى شارلوت أن وجهها قد أخذ يتجعد ويذبل : « وكيف تعرفين منه هذا ؟ وما الذى يحملك على أن ... ؟ إنك لن تعرفى منه شيئاً قط » .

... شارلوت عينيها عن ذلك الوجه الذى تبدل لساعته ، ثم قالت وكأن وحياً هبط عليها فأنطقها بهذا القول : « إذن فأنت تعرفين هذه الكتابة حق المعرفة » .

« أعرف الكتابة ؟ وكيف أعرفها ؟ إن كل ما أعرفه ... من الرسائل التى ... ، ولدى » ثم سكتت مسز أشبى ونظرت إلى كنتها نظرة المتوسلة ، بل أكاد ... متوجسة .

وأمسكت شارلوت بمعصمها وقالت : « أماه ! ماذا تعرفين ؟ خبرينى ! بحقك خبرينى ! » .

« إنى أعتقد أن لا خير مطلقاً تعقب فتح امرأة رسائل زوجها من وراء ظهره »

ووقع هذا القول على أذنى شارلوت المتوترتى الأعصاب موقع العبارات التافهة التى يلتقطها الصبية من كتاب للأمثال ليحشروها فى كتابتهم . وضحكت ضحكة متكلفة قلقة وأرخت قبضتها على معصم حماتها وقالت : « أهذا كل ما فى الأمر ؟ إن هذا الخطاب لا يمكن أن يكون من ورائه خير سواء فتحته أو لم أفتحه . إنى أعلم هذا حق العلم . ومهما يكن ما وراءه من شر فإنى أريد أن أعرف ما فيه » . وكانت يداها ترتجفان وهما قابضتان على المظروف ، ولكنهما ثبتتا فى تلك اللحظة ، كما هدأ صوتها وزال منه الاضطراب ، وظلت تحدق فى وجه مسز أشبى : « إن هذا هو ناسخ خطابه

معنون بنفس هذا الخط جاء إلى كنت منذ اقترنت به . وهو على الدوام فى مثل هذا الغلاف الرمادى ، ولقد عنيت بإحصاء هذه الخطابات ، لأنه كان يبدو بعد كل واحد منها كأنه إنسان صدم صدمة عنيفـة . وهو يقضى عدة ساعات قبل أن يفيق من أثرها فيه . ولقد نبهته إلى هذا ، وقلت له أن لا بد لى من معرفة من يرسل إليه هذه الخطابات ، لأن فى وسعى أن أرى أنها تقتله قتلا . ولـكنه لا يرد على أسئلتى و يقول إنه لا يستطيع أن يطلعنى على شىء ما يختص بهذه الرسائل ، غير أنه وعدنى فى الليلة الماضية أنه سيسافر معى — فرار أمنها » .

وكانت مسز أشبى قد مشت بخطى مرتجفة وئيدة نحو أحد الـكراسى الساندة ، وجلست عليه وهى محنية الرأس على صدرها ، ثم تمتمت قائلة : « آه »

« إذن فقد فهمت الآن »

« هل قال لك إنه يريد أن يسافر ليبتعد عنها ؟ »

« لقد قال ليبتعد — ليبتعد . لقد كان ينتحب انتحاباً كاد يعجزه عن الـكلام ، ولـكنى أخبرته أنى أعرف السبب »

« وماذا قال ؟ »

« لقد ضمنى بين ذراعيه ، وقال إنه سيذهب إلى أى مكان أريد »

فقالت مسز أشبى : « الحمد لله ! » ثم ساد صمت عميق ظلت بعده جالسة وهى مطرقة برأسها ، وعيناها تتجنبان النظر إلى عينى كنتها ، ثم رفعت آخر الأمر رأسها وقالت : « وهل أنت واثقة من أن عدد هذه الرسائل قد بلغ تسعاً ؟ »

« بالضبط ، وهذه هى التاسعة لقد أحصيتها وعددتها عداً »

وهل رفض أن يقول لك شيئاً عنها ؟ »

« رفض رفضاً باتاً »

وقالت مسز أشبى وهى تخرج الألفاظ من بين شفتيهـا المتقمتين المتلصقتين :
« ومتى بدأت هذه الرسائل تصل إليه ؟ هل تذكرين هذا ؟ »

وضحكت شارلوت مرة أخرى : « أأذكر ؟وصلت أولاها فى الليلة التى عدنا فيها بعد أن قضينا شهر العسل ؟ »

« وظلت تصل من ذلك الوقت البعيد ؟ »، ثم رفعت مسز أشبى رأسها وقالت وقد دب فيها النشاط :

« إذن — نعم افتحيها »

وكانت شارلوت لاتتوقع قط أن تقول مسز أشبى هذه العبـارة ، فأحست بأن الدم قد صعد إلى صدغيها ، و بدأت يداها ترتجفان مرة أخرى . وحاولت أن تضع إصبعها بين طبقتى المظروف ، ولـكنه كان محكم التصميغ إحكاما اضطرها إلى البحث عن مشرط زوجها على مكتبه ، و بينما هى تدفع الأدوات التى مستها يدا زوجها من وقت قصير سرت فى جسمها قشعريرة كالتى تسرى فى جسم من يمس أدوات إنسان قضى نحبـه حديثاً . وسرى صوت تمزيق الورق وهى تقطع المظروف فى الغرفة الساكنة كما يسرى صياح آدمى . وأخرجت الورقة التى بداخل المظروف ويممت شطر المصباح .

« وسألتها مسز أشبى بصوت خافت : « ماذا وجدت ؟ » .

ولم تتحرك شارلوت من مكانها ولم تحر جوابا . بل ظلت مطرقة برأسها تحدق فى الورقة وهى مقطبة الجبين ، وأخذت تقر بها شيئاً فشيئاً إلى الضوء . إن شيئاً يحول بين عينيها و بين الـكتابة ، أو لعل ضوء المصباح المنعكس على الورقة الملساء قد يبهر عينيها ، فلم تستطع أن ترى إلا بضع شرطات حائلة اللون مضطربة لا يستطيع أحد أن يقرأها . . .

وقالت : « إنى لا أستطيع حل هذه الرموز »

« ماذا تقصدين ياعزيزتى ؟ »

« إن الكتابة غير واضحة إلى حد .... انتظرى »

وعادت إلى النضد وجلست بالقرب من مصباح المكتب ووضعت الرسالة تحت منظار مكبر . وكانت فى أثناء هذا العمل كله تدرك أن حماتها تراقبها عن كثب .

وقالت مسز أشبى أخيراً : « ماذا وجدت ؟ »

« إن الكتابة لا تزال غير واضحة ، ولا أستطيع قراءتها »

« أتقصدين أن الورقة بيضاء لا شىء فيها على الإطلاق ؟ »

« لا ، ليست بيضاء ، إن فيها كتابة ، وفى وسعى أن أتبين فيها عبارات مثل « لى » آه وها هى ذى « تعال » قد تكون هذه « تعال » .

ووقفت مسز أشبى على حين غفلة ووجهها أشد امتقاعا من ذى قبل ، وتقدمت نحو النضد واتكأت عليه بكلتا يديها ، وزفرت زفرة عميقة . وقالت وهى تحاول على الرغم منها أن تبذل مجهودا بغيضا إليها : « إسمحى لى أن أرى الرسالة » .

وأحست شارلوت بأن امتقاع لونها قد تسرب إليها أيضا . وقالت فى نفسها « إنها تعرف جلية الأمر » . ودفعت الخطاب إليها من فوق النضد . وأطرقت حماتها برأسها فى اتجاهه وهى صامتة دون أن تمسه بيديها الصفراوين المجعدتين .

ووقفت شارلوت ترقب حماتها كما كانت هى ترقبها قبل وهى تحاول أن تقرأ الخطاب . وبحثت مسز أشبى عن منظاريها ، ووضعتهما على عينيها وانحنت أكثر من ذى قبل على الورقة المبسوطة أمامها ، وكأنها تتحاشى أن تمسها بيدها ، وسقط ضوء المصباح على وجهها مباشرة . وأخذت شارلوت تصور لنفسها ما عسى أن يكون كامناً وراء هذه التجاعيد الواضحة من خفايا عميقة . ولم تكن قد شاهدت من قبل معارف حماتها إلا وهى موقنة أنها تعبر عن أحسن العواطف وأكثرها صراحة — تعبر عن الحب الذى يملأ قلبها ، وعن الرقة والعطف الشديدين وإن كان يظهر عليها من

حين إلى حين ومضة من الغضب الذى لا بأس به ؟ أما الآن فقد بدت لها وعليها سمات الخوف والكراهية والرعب . وكأن الأرواح التى تتصارع فى داخلها قد قلبت سحنتها وشوهتها حتى تماثل صورتها . ثم رفعت رأسها أخيراً وقالت : « لا أستطيع ! لا أستطيع! » قالت هذا بصوت الطفل المكروب الحزين .

« وأنت أيضاً لا تستطيعين قراءة الرسالة ؟ »

وهزت رأسها . وأبصرت شارلوت دمعتين تنحدران على خدها .

وقالت شارلوت فى إصرار شديد وشفتاها ترتجفان : « و إن كنت قد ألفت رؤية هذا الخط ؟ »

« ولم تقبل مسز أشبى من كنتها هذا التحدى وقالت : « لا أستطيع أن أقرأ فيها شيئاً مطلقا »

« ولكنك تعرفين من كتبها »

ورفعت مسز أشبى رأسها فى وجل؛ وتسللت عيناها القلقتان ، فألقتا نظرة الخائف لمرتاع على جوانب الحجرة التى ألفتها من زمن بعيد وقالت : « وأنى لى أن أعرف ؟ اقد أدهشنى فى بادئ الأمر . . . »

« أدهشك وجه الشبه ؟ »

« نعم ظننت — »

« خير لك أن تصارحينى القول يا أماه ؟ لقد عرفت من فورك أنها بخطها هى :

« انتظرى . يا عزيزتى — انتظرى »

« ماذا أنتظر ؟ »

ورفعت مسز أشبى رأسها إلى أعلى ، ومدت عيناها لشارلوت . ثم ارتفعتا إلى الجدار العارى القائم وراء مكتب زوجها :

وكانت شارلوت تتبع بعينها نظرات حماتهـا ، فضحكت ضحكة اتهام عالية : «لا حاجة بى إلى الإنتظار أكثر مما انتظرت ! لقد أجبتنى الآن عن سؤالى ! إنك تنظرين إلى المكان الذى كانت تعلق فيه صورتها على الجدار ! » .

ورفعت مسز أشبى يديها وهى تهمس محذرة . « صه » .

وصاحت شارلوت قائلة : « لست فى حاجة لأن تتصورى أن شيئاً ما يخيفنى بعد الآن » .

وكانت حماتها لا تزال متكئة على النضد . وتحركت شفتاها حركة المحزون المكروب وقالت : « ولكننا سائرتان بخطى سريعة نحو الجنون — لقد أوشكنا كلتانا أن نجن . إننا نعرف أن هذه الأشياء مستحيلة » .

ونظرت إليها كنتها نظرة المشفق المرتاع : « لقد عرفت من زمن بعيد أن كل شىء يمكن أن يقع » .

« حتى هذا ؟ » .

« نعم ، حتى هذا نفسه » .

« ولكن هذا الخطاب — إنى لا أجد شيئا فى هذا الخطاب » .

« قد يكون فيه شىء له . أنى لى أن أعرف ؟ أذكر أنه قال لى فى يوم من الأيام إنك إذا ألفت نمطا من الكتابة فإن فى وسعك أن تقرئى أية شرطة منها مهما كانت حائلة . وها أنذا أفهم الآن ما كان يرمى إليه بهذا القول . لقد ألف هذه الكتابة »

« ولكن الشرطات القليلة التى أستطيع أن أتبينها جد حائلة . وما من أحد يستطيع قراءة هذه الرسالة » .

وضحكت شارلوت مرة أخرى وقالت وهى تصر على أسنانها : « أظن أن كل ما يتصل بأطياف الموتى مصفر حائل » .

« آه ! يا ابنتى ، يا ابنتى . لا تنطقى بهذا القول » .

« لماذا لا أنطق به والجدران العارية نفسها تصيح به وتعلنه . وأى فرق بين أن تكون رسالتها واضحة مقروءة لك أو لى ؟ و إذا كان فى وسعك أنت أن ترى وجهها على هذا الجدار العارى ، فكيف لا يقرأ هو كتابتها على هذه الورقة الخالية ؟ ألا ترين أنها فى كل مكان فى هذا البيت ، وأنها أقرب إليه مما كانت قبل لأنها قد أمست ولا يراها أحد سواه ؟ واستلقت شارلوت على أحد المقاعد ، وغطت وجهها بيديها ، وتملكتها عاصفة من النحيب إرتجف لها جسمها كله من قمة الرأس إلى أخمص القدم . ثم أحست بشىء يلمس كتفها فرفعت عينيها فرأت حماتها منحنية عليها . وبدا لها أن وجه مسز أشبى قد صغر وذبل أكثر من ذى قبل ، ولكنها استعادت نظراتها الهادئة المألوفة . وكانت شارلوت طوال آلامها وأحزانها تحس بقوة هذه الروح الثابتة وأثرها فيها .

« غداً — غداً . سترين . سيتضح لك الأمر غدا بعض الوضوح » .

وقاطعتها شارلوت قائلة : « يتضح لى الأمر ؛ لست أدرى منذا الذى سيوضح الأمر لى ؟ »

وتراجعت مسز أشبى إلى الوراء ووقفت وقفة الشجاع ، وقالت بصوت قوى غير متلعثم : « سيوضحه لك كنث نفسه » ، ثم واصلت المرأة العجوز قولها : « و إلى أن يأتى الغد هيا بنا إلى العمل . إن علينا أن نبلغ الشرطة وأن نبلغها الآن دون أن نتريث لحظة واحدة . إن علينا أن نفعل كل شىء — كل شىء »

ووقفت شارلوت وقفة جامدة بطيئة وأحست أن مفاصلها قد يبست حتى أضحت كمفاصل المرأة العجوز : « وهل تقصدين أننا يجب أن نعمل بالضبط كما لو كان هناك فائدة فى أن نعمل شيئاً ما ؟ »

وصاحت مسز أشبى فى حزم وثبات : « نعم » ، وذهبت شارلوت إلى المسرة ورفعت السماعة .

٦

فى الغسق

للكاتب الانجليزى « ساكى » (هـ . هـ . منرو)

١٨٧٠ — ١٩١٦

[من أسرة عمل كثير من أفرادها فى الجندية . ولد فى بورما ثم عاد إليها مرة أخرى حيث عمل فترة قصيرة فى الشرطة . ورجع بعدئذ إلى لندن فى عام ١٨٩٦ وبدأ يراسل صحيفة وستمنستر غازت Westminister Gazette ، وتمتاز قصصه القصيرة بروعتها وختامها المدهش غير المتوقع . وقتل منرو فى الحرب العالمية الأولى]

جلس نورمان جورتسبى فى الحديقة متجها بظهره إلى شريط من العشب الأخضر يحيط به سور الحديقة ، وعن يمينه ركن هايدبارك بقعقعته وضوضاء عرباته .

وكانت الساعة حوالى منتصف السابعة من مساء يوم من أيام مارس الأولى ، وقد بدأت الظلمة تلف المكان ، ظلمة يخففها ضوء القمر الشاحب ومصابيح الشارع المتناثرة ، وكان الطريق العام والماشى تبدو خالية ، بيد أنك لو دققت النظر لرأيت أشباحاً تتحرك فى سكون خلال الضوء القليل ، أو تتفرق على المقاعد والكراسى ، لا تستطيع أن تميزها إلا بصعوبة من بين الظلال التى يجلسون فيها .

وسر المنظر جورتسبى ووافق ما كان يشعر به وقتئذ من كآبة ، فقد كان الغسق فى رأيه ساعة المهزوم ، فالرجال والنساء الذين ناضلوا فهزموا ، والذين يخفون حظهم الخائب وآمالهم الذاهبة عن عيون الفضوليين ، يخرجون فى هذه الساعة ، حين لا تستطيع أن تلاحظ ملابسهم الرثة وأكتافهم المنحنية وعيونهم الحزينة ، أو على الأقل لا تعرفهم .

ولم يكن المتجولون فى الغسق يحبون أن تأخذهم النظرات المتطلعة ، فكانوا يخرجون بالليل كالخفافيش ، لينالوا شيئاً من البهجة فى أرض المتعة ، بعد أن خلت ممن يحق لهم

إرتيادها ، ومن وراء حاجز الأشجار كانت تبدو أضواء باهرة وتسمع ضجة الطريق ، وكانت النوافذ تضيء خلال الغسق تكاد تمزقه ، وتكشف عن أماكن الذين ثبتت أقدامهم في نضال الحياة ، أو الذين لم يضطروا بعد إلى الإعتراف بالهزيمة على الأقل .

هكذا كان خيال جورتسبي يصور له الأشياء وهو جالس على المقعد في الممشى المهجور ، وكان مزاجه يضعه في تلك اللحظة في صف المهزومين . لم يكن في ضيق مادي ، ولو أراد لمضى في الطرقات الضيقة ذات الضوضاء ، ولأخذ مكانه بين الطبقات المتزاحمة من الذين يتمتعون بالرخاء أو يجاهدون في سبيله ، لكنه فشل في تحقيق أمل كان يساوره . وفي تلك اللحظة كان آسي القلب مكتئبا ، ولا يرى ما يمنعه أن يسر سرور الساخرين بالنظر إلى زملائه الجائلين حين يمرون بالأجزاء المظلمة بين المصابيح .

وجلس إلى جانبه شيخ يبدو عليه مظهر الاستسلام للمقادير . ولعل هذ المظهر كان آخر ما بقي من احترام النفس لرجل لم يعد يرى نفعا في تحدى الناس أو الأشياء ، لا تستطيع أن تسمى ملابسه رثة ، فقد كان على الأقل لا يخجل من الظهور بها في النور ، لكنك لا تستطيع أن تتخيل الشخص الذى يرتديها واقفا في متجر أنيق يشترى صندوقا من الحلوى أو طاقة من الأزهار ، ولا يسعك إلا أن تعرف أنه واحد من أفراد الفرقة المنسية التي لم تعد تطرب أحداً ؛ ولما قام لينصرف تخيله جورتسبي راجعا إلى منزل هو فيه من سقط المتاع ، أو إلى فندق لا يتعدى إهتمام أصحابه به حد التساؤل : هل يؤدى لهم أجر هذا الأسبوع أو لا يؤديه ؟ واختفى شبحه المبتعد في بطء بين الظلال ، واحتل مكانه في الحال شاب يبدو مهندم الثياب لكنه مكتئب كسابقه ، وزفر زفرة ألم وهو يرمى بجسمه على المقعد ، كأنما هو يعلن أن الدنيا لا تقبل عليه .

وأدرك جورتسبى أن لا بد له أن يفترض أنه قد لاحظ هذا المشهد ، وأن عليه أن يقول شيئاً فقال :

« أنك لا تبدو على أحسن حال » !

فالتفت إليه الشاب ونظر إليه نظرة ملوءها الصراحة نبهته إلى أن يكون حذراً فى خطابه وقال :

« لن تكون فى أحسن حال لو كنت مكانى وفى المـأزق الذى أنا فيه : لقد فعلت أسخف ما يمكن أن يفعله إنسان فى حياته » .

فسأله جورتسبى بلهجة هادئة .

« ماذا فعلت ؟ »

« غادرت بلدتى بعد ظهر اليوم قاصداً النزول فى فندق . . باتاجونيان فى ميدان « يوركشير »، ولكنى حين وصلت إليه وجدته قد هدم منذ أسابيع وحلت مكانه دار للخيالة ، وأوصانى سائق السيارة أن أنزل بفندق آخر يبعد عنه قليلا وأخذنى إليه . وأرسلت خطابا إلى أسرتى ذكرت لهم فيه عنوانى ثم نزلت لأشترى قطعة من الصابون ، فقد نسيت أن أحضر شيئاً منه معى ، ولا أحب إستعمال صابون الفنادق ، ثم تمشيت قليلا ، وأخذت كأسا فى مشرب قريب ، ونظرت إلى بعض وجهات المتاجر ، فلما أردت العودة أدركت فجأة أنى لا أذكر اسم الفندق ولا عنوانه . وكان مأزقا حرجاً لشخص مثلى لا أصدقاء له ولا معارف فى لندن؛وفى وسعى بطبيعة الحال أن أرسل إلى أسرتى لتوافينى بالعنوان ، لكن الخطاب الذى بعثت به إليهم لن يصلهم إلا فى الغد ؛ ثم إنى الآن بلا مال ، فقد خرجت ومعى شلن واحد ذهب فى شراء الصابون والشراب ، وهأنذا أجول فى الطرقات وليس معى الآن إلا بنسان ، ولا أعرف مكانا أقضى فيه ليلتى » .

ثم سكت سكوتا ذا مغزى ، وأضاف قائلا فى لهجة إمتعاض : «لعلك تعتقد أنى قد نسجت لك حكاية من الخيال » ، فقال جورتسبى :

« ليست قصتك صعبة التصديق ، وأنا نفسي أذكر أنى فعلت شيئاً مثل هذا فى إحدى العواصم الأجنبية ، وكنا إثنين ، فكانت حالنا أشد حرجا من حالك أنت ، لكن من حسن الحظ أننا تذكرنا أن الفندق يقع على شاطئ نهر ما ، فلما أن عثرنا على النهر استطعنا أن نجد طريقنا إلى الفندق» .

وطرب الشاب لهذه الذكرى وقال :

« لو كنت فى بلد غريب لما اهتممت ، لأن فى استطاعتى فى هذه الحال أن ألجأ إلى قنصلية بلدى ، وهناك كنت أحظى بالمعونه المطلوبة ، أما هنا والإنسان فى بلده فإنه يحار إذا وقع فى مثل هذا المأزق ، فإن لم أجد شخصا منصفا يصدق قصتى ويقرضنى بعض المال فأغلب الظن أنى سأقضى ليلتى على جسر النهر . ومع ذلك فانى ليسرنى أنك لا تظن قصتى بعيدة الاحتمال » . وجهد أن يكون فى ملاحظته الأخيرة قدر كبير من الحرارة ، مؤملاأن يكون جورتسبى هو هذا الشخص المنصف .

فقال جورتسبى فى بطء : « طبعا ، أن نقطة الضعف فى قصتك أنك لا تستطيع إبراز الصابون »

فاعتدل الشاب فى جلسته مسرعا وأخذ يبحث فى جيوب معطفه ، ثم قفز من مكانه وهو يقول غاضبا : «لا بد أنى فقدتها» .

فقال جورتسبى « إن فقدك عنوان الفندق وقطعة الصابون فى ساعة واحدة لينم عن إهمال شديد » .

لكن الشاب لم ينتظر حتى يسمع نهاية الملاحظة ، بل مضى بسرعة مرفوع الرأس وعليه سيماء الحنق .

فقال جورتسبي : «مسكين إنّ خروجه لشراء صابونة كان محور قصته ، لكن هذه النقطة التافهة هي التي قضت عليها ، ولو كان له أدنى حظ من الذكاء لحمل معه صابونة ملفوفة في ورقة من ورق المتاجر ، ولكان عبقريا في خطته . والعبقرية في هذه الحال هي القدرة التي لا قدرة بعدها على الاحتياط .

وهم جورتسبي بالانصراف ، لكن صيحة أفلتت منه ، فقد رأى على الأرض بجانب مقعده لفافة عليها اسم أحـــد المتاجر ولا يمكن أن تكون إلا قطعة من الصابون ، وما من شك في أنها قد وقعت من جيب معطف الشاب حين رمى بنفسه على المقعد .

وما هي إلا لحظة حتى كان جورتسبي يذرع الطريق المظلم وهو بادي القلق يبحث عن شاب في معطف نظيف ، ولما أوشك أن ييأس من العثور عليه رآه واقفاً على جانب الطريق متحيراً كأنه يفكر ، هل يمضي في طريق الحديقة أو يتخذ طريقه الى «جسر الفرسان» ، والتفت مغضبا حين ناداه جورتسبي وفي يده قطعة الصابون .

« ها قد وجدت الدليل القاطع على صدق قصتك ، وما من شك في أنها وقعت من جيب معطفك حين كنت جالسا على المقعد ، ولقد رأيتها على الأرض بعد أن قمت . أرجو أن تغفر لي عدم تصديقي إياك ، لكن الظواهر كلها كانت في الحقيقة لا تؤيدك . والآن وقد جاءت قطعة الصابون بالبرهان القاطع فليس لي إلا أن أصدق قولك . وإذا كان جنيه يساعدك فإني أكون سعيداً لو قبلته » ولم يترك الشاب سبباً للشك فيما ينتويه ، فقد أخذ الجنيه لساعته ووضعه في جيبه .

وواصل جورتسبي حديثه قائلا « وهاك بطاقه عليها عنواني ، فتستطيع أن ترد المال في أي يوم من هذا الأسبوع ، وها هي ذي قطعة الصابون ، فلا تضعها مرة أخرى فهي نعم العون لك .

فأجاب الشاب :

« كان من حسن حظى أنك وجدتها » ، وأخذ يشكر جور تسبى وقد غص بريقه ، وأسرع فى اتجاه جسر الفرسان .

وقال جوتسبى لنفسه . « ياله من بائس ، لقد أوشك أن يبكى ، ولست أعجب لذلك فقد كان خلاصه من ورطته مفاجئا ، وإنه لدرس لى فى ألا أتسرع فى الحكم على الناس بالظواهر »

واتجه عائدا إلى المقعد حيث حدثت المأساه الصغيرة ، و إذا هو يجد شيخا يجد فى البحث حول المقعد وتحته ، وعرف فيه من كان جالسا إلى جانبه قبل هذا الشاب فسأله : « هل فقدت شيئا ياسيدى ؟ »

فأجاب الشيخ « نعم ياسيدى قطعة من الصابون ! » .

٧

المجموعة الخيالية

استيفان زفيج

١٨٨٠ — ١٩٤٢

[ولد فى فينا من أبوين يهوديين . وقد أصدر عددا كبيرا من الروايات والمسرحيات والدراسات النقدية والتراجم ، ولكن أعظم ما يشتهر به قصصه القصيرة ، وهى التى يفضلها هو عن جميع فنون الأدب . ومن أقواله فى هذا المعنى « لقد كان يبدو لى على الدوام أن الإيجاز أهم العناصر الجوهرية فى الفن »]

دخل مقصورتنا فى أول محطة بعد «درسدن» رجل كبير السن ، وابتسم بلطف إلى الجالسين ، وخصنى بإيماءة من رأسه كأنه يعرفنى من قبل . ولما رأى حيرتى ذكر لى اسمه ، فعرفته بطبيعة الحال . لقد كان من أشهر الخبراء وتجار التحف الفنية فى برلين ، وقد أشتريت منه قبل الحرب بعض الكتب النادرة والمخطوطات . واتخذ مكانه فى المقعد الخالى أمامى ، وتحدثنا مدة عن أشياء لا تستحق الذكر ، ثم غير موضوع الحديث فشرح لى الغرض من الرحلة التى كان عائدا منها ، فقد كانت من أغرب ما مر به فى خلال سبع وثلاثين سنة قضاها بائعا للقطع الفنية . وحسبي هذا مقدمة ، فسأدعه يقص القصة بألفاظه هو دون ذكر علامات الاقتباس لأجنب التعقيد . قال :

أنك لتعرف ما حدث لتجارتى مذ ذهبت قيمة المال أدراج الرياح ، لقد صار لأغنياء الحرب غرام بأعمال كبار الفنانين ، و بالسجاجيد القديمة وغيرها ، وليس من اليسير أن تشبع رغبتهم ، وإنه ليصعب على رجل مثلى يفضل أن يبقى أحسن ما عنده لمتعته هو واستعماله أن يرى منزله وقد أوشك أن يتعرى من كل شيء . ولو جاريناهم لاشتروا أزرار قميصي ، ومصباح مكتبي . لقد أصبح من الصعب فى هذه الأيام أن يجد الإنسان سلعا لبيعها . قد يبدو لك لفظ « سلع » غريبا فى هذا المقام ، لكن

يجب أن تلتمس لى العذر ، فقد اخترت لك اللفظ الذى يستعمله النوع الجديد من العملاء .

ويستحيل أن تقاوم شراهة هؤلاء الناس فى تبذير أموالهم ، فقد خيل إلىّ وأنا أنظر حولى فى تلك الليلة أن لم يبق شىء ذو قيمة أغلق عليه أبواب حانوتى . لقد كانت مهنتى هذه مهنة جميلة ورثتها أبا عن جد ، لكن الحانوت قد امتلأ بالتوافه التى كان البائع الجائل قبل سنة ١٩١٤ يأنف أن يبيعها على عربة يد .

وبدا لى فى هذه الورطة أن أقلب صفحات دفتر حسابات عملائنا القدامى لعلى أجد من بينهم من يرغبون فى بيع ما اشتروه فى أيام رغدهم . نعم إن سجل هؤلاء المشترين القدامى ليشبه كل الشبه مكان واقعة حربية انتشرت فيه جثث القتلى . والحق أنى سرعان ما أدركت أن معظم هؤلاء قد ماتوا أو أضحوا فى حالة من البؤس اضطروا معا إلى بيع كل شىء ذى قيمة لديهم . على أنى وجدت حزمة من الخطابات لرجل إن كان لا يزال حيا فهو بلا ريب أقدم العملاء ، لكنه كان من الكبر بحيث نسيته ، إذ لم يشتر منى شيئا بعد قيام الحرب صيف سنه ١٩١٤ . نعم إنه كبير جدا ، فقد كانت أقدم الخطابات مؤرخة منذ أكثر من نصف قرن حين كان جدى يشرف على العمل ، على أنى لا أتذكر قط أننى كانت لى به أية صلة فى خلال السبع والثلاثين سنة التى كنت أعمل فيها بجد فى المتجر .

وكانت كل الشواهد تدل على أنه واحد من أولئك الشواذ الغريبى الأطوار الذين كانوا على ظهر الأرض قبل الطوفان ، والذين بقيت منهم أقلية فى مدن الريف الألمانية . وكانت كتاباته كأنها منقوشة على اللوح ، وكان يضع خطا بالمداد الأحمر تحت اسم كل تحفة يطلبها . وكان يكتب ثمنها بالأرقام والحروف معا حتى يمنع كل خطأ . وهذه الخصائص العجيبة مضافا إليها أنه كان يستخدم الأوراق

البيضاء الأولى من الكتب ليكتب عليها رسائله ويضعها فى مظاريف مختلفة الأنواع تشير إلى أنه من أبخل خلق الله طرا .

وكان يوقع على الدوام باسمه ومن تحته «حارس الغابة وعضو المجلس الاقتصادى سابقا . ملازم أول سابقا . حامل الطبقة الأولى من وسام الصليب الحديدى » . ولما كان قد اشترك فى حرب سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ فهو الآن يناهز الثمانين من العمر .

وكان من الجلى أنه رغم شحه وشذوذه ذو علم وذوق وخبرة فى جمع الصور واللوحات . وإذا ما درس الإنسان ما اشتراه منها دراسة دقيقة — وكان مجموع ثمنها فى بادئ الأمر قليلا — تبين له أن هذا القروى قد استحوذ على مجموعة من اللوحات وأمثالها تضارع أعظم ما ابتاعه منها أثرياء الحرب الذائعو الصيت . إن كان أتفه ما اشترى من قطع فنية فى ذلك الحين يساوى اليوم مبالغ ضخمة ، ولم أر ما يدعو إلى الظن أنه لم يعقد مثل هذه الصفقات فى مكان آخر . ترى هل تبددت مجموعته ؟ لقد كان اتصالى بسوق الفن منذ آخر صفقة له يجعل من المتعذر أن تنتقل هذه المجموعة من يد إلى يد دون أن أعلم بذلك ، وإذا كان قد مات فربما بقيت كنوزه سليمة فى يد ورثته إلى اليوم .

واهتممت بالأمر اهتماما حملنى على السفر فى اليوم التالى (وهو أمس مساء) فى رحلة إلى إحدى المدن القاصية فى مقاطعة ساكسونيا . ولما غادرت محطة السكة الحديد الصغيره ومشيت فى الطريق الرئيسى بدا لى أن من المستحيل أن يكون لدى شخص يقطن مثل هذه المنازل مجموعة من الصور والنقوش أبدعها رمبرانت ودرورر ومانتجناس ، لكنى ذهبت إلى مكتب البريد لأسأل عنه ، ودهشت حين علمت أن شخصا كان فى وقت من الأوقات حارس غابة وعضوا فى المجلس الاقتصادى يطلق عليه الاسم الذى ذكرته مازال حيا ، ودلونى على مسكنه ، ولا

أ كتمك أن ضربات قلبي قد أسرعت وأنا في طريقي إليه وكنا قبل الظهر بوقت كاف.

وكان الرجل الهاوى الذى أبحث عنه يقطن فى الطابق الثانى من أحد المنازل غير المتينة البناء التى بنى منها المضاربون عددا كبيرا خلال العقد السابع من القرن الماضى . وكان يشغل الطابق الأول منه خياط ؛ ورأيت فى الطابق الثانى على الشمال لافتة باسم رئيس مكتب البريد ؛ وعن يمينها لافتة من الرخام تحمل اسم الرجل الذى جئت أبحث عنه ؛ وماأن دققت الجرس حتى أجابت سيده عجوز بيضاء الشعر ؛ وأعطيتها بطاقتى وسألتها هل السيد فى البيت؛ونظرت إلىّ نظرة شك ؛ ثم نظرت إلى وجهى مرة أخرى . ذلك أن زيارة رجل من سكان العاصمة تبدو فى هذه البلدة النائية المهجورة حادثا غريبا . وعلى أى حال فقد سألتنى فى لهجة حاولت قدر ماأمكنها أن تكون لهجة ودية: هل أسمح بالإنتظار دقيقة أو اثنتين فى الردهة ؟واختفت داخل أحد الأبواب وسمعت همسا ثم صوتا عاليا لرجل يقول. تقولين السيد راكنر من برلين الخبير الشهير فى التحف الفنية . إنى ليسرنى أن أراه بطبيعة الحال ، ثم ظهرت المرأة العجوز من فورها ودعتنى إلى الدخول ؟ .

فخلعت معطفى وتبعتها ، وفى وسط الغرفة ذات الأثاث البسيط وقف رجل يستقبلنى ، كان هرما ، لكنه جيد الصحة ، وكان له شارب كثيف ويرتدى سترة شبه عسكرية ، ومد كلتا يديه نحوى مظهراً منتهى الود ؟ وكانت هذه منه حركة طبيعية غير متكلفة تختلف كل الإختلاف عن جموده فى وقفته . ولم يتقدم نحوى ليستقبلنى ، فاضطررت — وأنا أحس أن كرامتى قد جرحت بعض الشىء — أن أتقدم إليه لأصافحه ، ثم لاحظت أن يديه لم توضعا فى يدى ،بل انتظر أن أمسك أنا بهما ، وبعد لأى أدركت ماغاب عنى ، لقد كان أعمى

لقد كنت من أيام طفولتى أجد نفسى فى حيرة إذا وجدت مع أعمى ، ولقد كان يحيرنى ويربكنى ويخجلنى أن ألقى انسانا يتمتع بالحياة كاملة لكنه لا يستطيع أن يستفيد كل

الأستفاده من حواسه ، وأحس كأنما أتفوق عليه تفوقا غير عادل . وقد تملكنى هذا الشعور حين نظرت إلى العينين الثابتتين الكفيفتين تحت الحاجبين الأبيضين الأشعثين . على أن الرجل لم يدع لى متسعا من الوقت أفكر فيه هذا التفكير المؤلم ، فقد صاح ضاحكا فى صخب : انه ليوم سعيد حقا ، وإنها لتبدو معجزة أن رجلا من كبار رجال برلين يأتى إلينا ، ومن واجبنا نحن القرويين أن نكون على حذر حين يأتى لزيارتنا تاجر مشهور مثلك . ومن الأمثال المأثورة فى هذا الجزء الذى نسكنه من العالم : أغلقوا أبو بكم واحرصوا عل جيوبكم إذا رأيتم الغجرمن حولكم ، وإنى لأحدس السبب الذى دعاك إلى تحمل كل هذه المشقه ، فالتجارة كاسدة على ماأظن ، والمشترون قلائل ، أو أنهم معدومون ، ولهذا يبحث التاجر عن عملائه القدمى ، لكنى أخشى أن تبوء بالفشل ، فنحن — أرباب المعاشات — نعد أنفسنا سعداء إذا وجدنا بعض الخبز الجاف لغذائنا . لقد كنت أجمع التحف فى زمانى ، لكنى اليوم خارج هذا المحيط ، وقد انقضى عهد الشراء بالنسبة لى .

وأسرعت أقول إنه مخطىء فى ظنه ، وإنى لم أحضر من أجل صفقة أعقدها ، وكل ما فى الأمر أنى كنت مصادفة على مقربة منه ، ورأيت أنه لا يليق بى أن تفوتنى فرصة تقديم احترامى إلى عميل قديم هو فى الوقت ذاته من أشهر جامعى التحف الألمان . وما كدت أقول ذلك حتى حدث تغير ظاهر فى ملامح الرجل الهرم ، فقد كان واقفا جامدا فى وسط الحجرة ، لكن وجهه أشرق و بدت عليه علائم الزهو . واستدار إلى الاتجاه الذى ظن أن تكون زوجته فيه ، وهز رأسه وكأنما يقول : هل تسمعين ؟ ثم التفت إلىّ وقد رفع التكلف وتحدث فى لطف أو إن شئت فقل فى حنان :

كم هو جميل منك ! . . . لكنى آسف ألا يكون لزيارتك من أثر إلا معرفة رجل هرم مازح مثلى ، لكن عندى مع ذلك شيئا يستحق أن تراه ، شيئا أثمن مما

تجده فى برلين ، وفى ڤينا ، وحتى فى متحف اللوڤر (لعنة الله على باريس!) . فالرجل الذى كان جامعا مثابرا طيلة نصف قرن ، وكان له ذوق يقوده ، يمتلك كنوزا لاتجدها على ناصية كل شارع ، يا إلزبث أعطنى مفتاح الصوان إن سمحت .

هنا حدث شيء غريب ، فإن زوجته التى كانت تستمع إلينا مبتسمة مسرورة قد ذهلت ورفعت يديها نحوى وضمتهما فى تضرع وهزت رأسها ، ولم أدر ماذا تعنى هذه الحركات ، ثم ذهبت إلى زوجها ولمست كتفه قائلة :

فرانز ياعزيزى ، لقد نسيت أن تسأل زائرنا هل لديه موعد آخر ، وعلى أى حال فقد حان وقت الغداء أو كاد ، ثم قالت وهى تنظر إلىَّ : ويؤسفنى أن ليس لدينا فى المنزل مايكفى لإطعام زائر مفاجئ ، فلا شك أنك ستتناول غداءك فى النزل ، فإذا رأيت أن تشرب عندنا فنجانا من القهوة فيما بعد فإن ابنتى آنا ماريا ستكون هنا وهى أعلم منى بمحتويات الحقائب .

ثم نظرت إلىَّ مرة أخرى فى حنو وإشفاق وأدركت أنها تحثنى على رفض ما عرضه علىَّ زوجها من فحص المجموعة فى الحال . فقلت : الحق أن لدىَّ موعدا للغداء فى النزل ، لكن يسرنى أن أعود فى الساعة الثالثة ، وسيكون لدينا متسع من الوقت لفحص ما يرغب السيد كرونفيلد فى عرضه علىَّ ، ذلك أنى لن أغادر البلدة قبل الساعة السادسة .

وغضب الرجل كما يغضب الطفل حرم من لعبة جميلة وزمجر :

إنى أعرف بطبيعة الحال أن العظماء القادمين من برلين عليهم كثير من الواجبات ، لكنى أظن أنه يحسن بك أن تخلى نفسك بضع ساعات . إنى لا أريد أن أريك لوحتين أو ثلاثا ، بل أحب أن أريك محتويات سبع وعشرين محفظة ، كل منها لعلم من الأعلام وكلها مملوءة ، فإذا حضرت فى تمام الساعة الثالثة بالضبط فأظننا نستطيع الانتهاء قبل السادسة .

وأوصلتني زوجته إلى الخارج ، وعند باب المدخل همست : هل يضايقك أن تحضر آنا ماريا لرؤيتك في النزل قبل عودتك إلينا ؟ .. سيكون ذلك من الأفضل لأسباب عدة لا أستطيع شرحها الآن .

على العكس ، سيكون سروري عظيما ، فإني أتغدى اليوم وحدي ، ويمكن لابنتك الحضور حين تنتهون بعد غدائكم مباشرة .

ولما غادرت قاعة الطعام في النزل بعد ساعة من خروجي من البيت ، وصلت آنا ماريا كرونفيلد ، وكانت فتاة كبيرة حيية ، محتشمة ، بسيطة الملبس ، فلما رأتني أخذت تنظر إليّ وهي مرتبكة ، وبذلت ما في وسعي لأذهب ارتباكها ، وأبديت استعدادي للذهاب معها في الحال إن كان والدها يتلهف على ذهابي إليه وإن لم يحن موعدنا بعد . عند ذلك احمرت وجنتاها وازدادت ارتباكا ، ثم تمتمت في رجاء أن أسمح لها بحديث قصير قبل أن تمضي ، فأجبتها :

تفضلي بالجلوس ، إني طوع أمرك .

وكان من العسير عليها أن تبدأ الحديث ، فقد ارتجفت يداها وشفتاها ثم قالت بعد لأي :

لقد أرسلتني أمي . إننا نسألك مكرمة ، بمجرد قدومك سيرغب أبي في أن يريك مجموعة ، والمجموعة . . . المجموعة . . . حسنا ، لم يكد يبقى منها شيء . ولهثت وكادت تختنق بالبكاء ثم واصلت حديثها قائلة :

يجب أن أكون صريحة معك . . . أنت تعلم متاعب الأيام العصيبة التي تمر بنا ، وأنا أثق أنك ستدرك ما أقول . فبعد أن نشبت الحرب بقليل فقد والدي بصره تماما ، وقد كان بصره في ضعف مستمر ، ولعل اضطراب أحوال البلاد ساعد على ذلك ، ولقد أراد الذهاب إلى الميدان رغم أنه جاوز السبعين من عمره لأنه تذكر الحرب التي اشترك فيها منذ مدة طويلة ، وطبعا لم يكن ذا نفع في الحرب ،

فلما أن هزمت جيوشنا آلمه ذلك وأقض مضجعه ، و يظن الطبيب أن حزنه هذا قد عجل بفقد بصره . وأنت ترى أنه فيما عدا هـذا لا يزال قويا ، وقد كان حتى سنة ١٩١٤ يستطيع السير على قدمه مسافات طويلة والذهاب للصيد ، فلما أن فقد بصره أصبحت متعته الوحيدة مجموعته الفنية ، فهو ينظر إليها كل يوم و يتأملها ، أقول يتأملها و إن كان لا يرى شيئا . ففى عصر كل يوم يضع محافظ اللوحات على المنضدة و يتحسسها واحدة واحدة ، بالترتيب الذى جعلته السنون الطوال مألوفا له ، ولا يسره شيء مثل ما يسره ذلك . وهو يطلب إلىَّ أن اقرأ له أخبار المزايدات وكلما ارتفعت أثمـان التحف زاد هو حماسة ؛ وهذا هو الوجه المحزن فى المسألة ، فوالدى لا يعلم شيئا عن أزمة التضخم المالى ، ولا يعلم أننا قد حل بنا الخراب ، وأن معاشه الشهرى لا يشترى طعام يوم . ثم إن لنا من نعولهم غيرنا ، فزوج أختى قد قتل فى فردان وترك وراءه أربعة أطفال ، وقد أخفينا عنه هذه المتاعب المـالية ، ونحن نقتصد بقدر ما نستطيع . لـكن لا نستطيع أن نتدارك الأمر ، فأخذنا نبيع متاعنا ، الحلى وما إليها دون أن نمد يدا إلى مجموعته المحبوبة . ولم يكن لدينا ما يباع إلا القليل ، فقد كان أبى ينفق كل ما يحصل عليه فى شراء اللوحات والصور لأنه كان مصابا « بجنون الجمع » كما يقولون ، وأخيرا كان علينا ان نختار بين اثنتين : فإما أن نتجه إلى بيع المجموعة وإما أن ندعه يموت جوعا ، ولم يكن هناك اختيار ولم نطلب إذنه . وما الفائدة ؟ إنه لم يكن يعلم ما نلاقيه من الصعاب فى الحصول على الطعام بأى ثمن ، فهو لم يسمع أن المانيا قد سلمت الألزاس واللورين ، فنحن لا نقرأ له مثل هذه الأنباء فى الصحف .

وكانت أولى قطعة بعناها ثمينه جدا ، هى لوحه من صنع رامبرانت ، وأعطانا فيها التاجر ثمناً ضخما ، كذا ألفا من الماركات ، وظننا أنها ستكفينا عدة سنين ، لـكنك تدرك كيف كانت النقود تتبخر فى سنه ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ ، فبعد أن أخذنا حاجتنا

العاجلة أودعنا الباقى فى أحد المصارف ، ولكننا أنفقناه كله فى شهرين ، واضطررنا إلى بيع لوحة ثانية فثالثة ، وكان ذلك فى أسوأ أيام التضخم المالى ، وكان التاجر كل مرة يماطل حتى يصبح ما يدفعه ثمنا لها لا يساوى عشر ما وعدنا بدفعه أو جزءاً من مائة منه . وجربنا المزادات لكننا خدعنا هناك أيضا ، وإن كانت الأثمان قد قدرت بالملايين ، فقد كانت ملايين الماركات وملايين الملايين منها لا تزيد قيمتها حين تصل إلى أيدينا على قيمة الأوراق التى تلقى فى سلة المهملات . وهكذا تبددت المجموعة فى سبيل الحصول على الخبز ولم نحصل منه إلا على القليل . وهذا ما أفزع والدى حين حضرت اليوم ، فإذا فتحت الحافظات عرفت خدعتنا على الفور ، فهو يعرف كل قطعة منها باللمس ، لذلك كنا كلما أخذنا لوحة وضعنا محلها لوحة من الورق المقوى بنفس الحجم والسمك حتى لايدرك شيئا مما فعلنا ، فهو يلمسها واحدة بعد واحدة ويعيدها ويسر من ذلك كأنه قد رآها فعلا ، وهو لا يحاول قط أن يرى مجموعته لأحد هنا ، لأن هذ الجهات ليس فيها خبراء فى اللوحات ، وليس فيها من هو خليق بأن يراها . لكنه يحب كلا منها إلى درجة العبادة ، وإن قلبه ليتحطم إذا علم أنها قد تبددت . وكانت آخر مرة طلب فيها إلى أحد أن يراها حين عرضها على أمين المتحف الفنى فى درسدن ، وقد مات هذا الأمين من عدة سنين . ثم قالت بصوت أجش : لهذا أضرع إليك ألا تحطم خداعه ! وألا تقضى على إيمانه بأن ما سيعرضه عليك حقيقى ، فلن يتحمل الصدمة إذا عرف أنها ضاعت . ولربما تكون قد ظلمناه ، ولكن ما ذا كنا نفعل ؟ إن الإنسان لابد له أن يعيش ، وإن الأطفال اليتامى لأعز من اللوحات القديمة . وإلى جانب هذا كانت سعادته أن يقضى ثلاث ساعات عصر كل يوم يمر على مجموعته الوهمية ويتحدث إلى كل قطعة منها وكأنها صديق له . ربما كان اليوم آخر تجربة تمر به مذ فقد بصره ، فلطالما انتظر فرصة يعرض فيها كنزه على خبير ! فإذا ما اشتركت معنا فى هذه الخدعة . . .

ليس فى وسعى أن أنقل إليك بهذه الألفاظ الباردة مقدار ماحز فى نفسى هذا التوسل . لقد رأيت حالات محزنة كثيرة فى أثناء عملى ، ولطالما شاهدت أناساً انهاروا فى أثناء التضخم واضطروا أن يضحوا بأثمن متاعهم الموروث وأعزه فى سبيل كسرة . لكن قصة هذا الأعمى قد مست شغاف قلبى . ولست بحاجة إلى أن أذكر أننى وعدتها أن أضطلع بهذا الدور .

وذهبنا إلى منزلها معا ، ولقد أحزننى — وإن لم يدهشنى — وأنا سائر معها أن أعلم أن هاتين المرأتين الجاهلتين قد باعتا — بحسن نية — لقاء ثمن بخس كثيراً من روائع الفن كان بعضهـا عظيم القيمة وبعضها لا مثيل له . وهذا مما زاد فى عزمى أن أساعدهما بكل ما أستطيع . وحين صعدنا السلم سمعنا صوتاً يقول : تفضل ! تفضل ! فقد عرف الأعمى لما يمتاز به أمثاله من سمع حاد وقع الخطوات التى كان ينتظرها بفارغ الصبر .

وقالت زوجه العجوز وهى تقودنا إلى الداخل مبتسمة : إن فرانز ينام قليلا بعد الظهر ، لكنه لاهتمامه وتحمسه بقى مستيقظاً اليوم : وكانت نظرة إلى ابنتها كافية لتدلها على أن كل شىء على ما يرام . وكانت مجموعة الحافظات على المنضدة ، وأمسك بى الجامع الأعمى من ذراعى وألقانى على كرسى أعد لى إلى جانبه .

وقال : دعنا نبدأ فى الحال ، فلدينا الكثير مما يجب أن تراه ، والوقت ضيق . إن الحافظة الأولى تحوى أعمال « درورر » وهى مجموعة كاملة تقريباً ، وسترى أن كل قطعة منها تفوق الأخرى ، إنها نماذج رائعة . احكم بنفسك

وفتح الحافظة وقال : لنبدأ بلوحة « قارئ الغيب طيما »

ثم أخرج بعناية ورقة كما لو كان يمسك شيئاً ثمينا قابلا للكسر أولى اللوحات ورفعها وهو يبدى إعجابه بها أمام عينى المبصرتين وعينيه الكفيفتين . وكانت نظراته تحوى من معانى الإعجاب ما يعز معه على أن أصدق أنه لا يبصر ، ورغم أنى أعلم أن

الصورة وهمية فقد وجدت من الصعب أن أشك أن فى عينيه إدراكا ومعرفة . . .

هل رأيت لوحة أجمل من هذه ؟ كل التفاصيل واضحة جلية ، فقد فاضلت بين لوحتى واللوحة المحفوظة فى متحف درسدن ، والثانية جيدة بلا ريب ، لكنها تبدو متواضعة إزاء هذه . ثم إن عندى بيان ملاكها المتعاقبين

وأدار اللوحة وأشار إلى ما كتب على ظهرها بثقة جعلتنى دون قصد أنحنى إلى الأمام لأقرأ الإمضاءات الوهمية — طابع مجموعة « ناجلر » ثم « ريمس » ثم « اسداى » . إن ملاكها قبلى لم يكونوا يظنون قط أنها ستستقر فى مثل هذه الحجرة الصغيرة .

وارتجف جسمى واضطربت أعصابى حين كان هذا الرجل المتحمس يطرى لوح الورق الخالى الذى كان بيده . وكاد قلبى ينخلع من شدة التأثر حين وضع ظفر إصبعه على المكان الذى يظن أن قد كتب فيه أسماء من يعتقد أنهم امتلكوا هذه الصورة البديعة ، ومن أصبحوا من زمن بعيد من سكان القبور . وخيل إلىّ وقتئذ أن أشباح هؤلاء الموتى الذين أخذ يذكر لى أسماءهم قد خرجت من مقابرها . والتصق لسانى بسقف حلقى وظل كذلك حتى وقعت عيناى مرة أخرى على وجهى زوجة كرنفلد وابنته ، وقد كاد يطير لبهما وينخلع قلبهما مما استولى علىّ من ذهول ، واستجمعت قواى وعدت إلى تمثيل دورى فى هذه المأساة وصحت متكلفاً الإعجاب:

إنك محق فهذه الصورة لا مثيل لها

فانتفخ زهواً وأتم كلامه قائلا :

ولكن هذه ليست شيئا يذكر إذا قيست إلى ما عندى ، انظر إلى هاتين « الحزينة » و « العاطفة » ، إن الأخيرة دون ريب لا نظير لها ، انظر إلى حدة الألوان ، إن زملاءك فى برلين وأمناء المتاحف العامة ليغبطوننى إذا وقعت عينهم عليها

ولن أثقل عليك بالتفاصيل . فهكذا مرت ساعتان كاملتان والرجل يخرج حافظة إثر أخرى ، ولقد كان شيئا مفزعا أن أرقب عرض مائتين أو ثلثمائة صفحة

بيضاء ، وأن أجيبه بكلمات الإطراء فى مواضعها ، و باطراء مزايا لا وجود لها ، ولكنها كانت بالنسبة لهذا الأعمى حقيقة واقعة ، حتى لقد كان إيمانه هذا يبعث فى قلبى إيمانا يماثله . ولقد أبجانى هذا الإيمان من ألم شديد .

وأوشكت النكبة أن تحل ذات مرة ، ذلك أنه كان يعرض علىّ لوحة لرامبرنت اسمها « أنتيوب » لابد أنها كانت ذات قيمة لاتقدر — ولا ريب أيضا أنها بيعت بثمن بخس — وأخذ يطنب فى جمالها وتناسق ألوانها ، لكنه مر بأصابعه بخفة عليها ولم تجد أنامله الحساسة بعض ملامحها المألوفة فاربد وجهه وارتجفت شفتاه وقال :

لا بد أن تكون هذه لوحة رامبرنت ، فما من أحد يلمس اللوحات سواى فكيف يضطرب وضعها .

وحينئذ أسرعت وأخذت منه اللوحة وقلت . . . ولكنها بعينها ولا شىء سواها يا سيد كرونفيلد ، وأخذت أصف دقائق اللوحة التى أمكنتنى ذاكرتى أن أخلعها على اللوح الأبيض .

فزال ارتباكه ، وكلما مضيت فى الثناء ، ازداد اغتباطا حتى قال فى النهاية للمرأتين وهو جذلان :

ها هو ذا رجل يعرف قيمة الأشياء ، طالما لمتمانى على تبذير نقودى فى شراء هذه المجموعة . لقد قضيت عشرين عاما كاملة حرمت فيها نفسى من الخمر والدخان والرحلات وزيارة المسارح وشراء الكتب ، وأنفقت كل ما أمكن ادخاره لشراء هذه الصور التى كنتما تحتقرانها . فها هو ذا السيد راكنر يؤيدنى فى حكمى عليها ، فإذا ما مت فستصبحان أغنى من فى البلدة ، وسيكون لديكما من المال ما لأغنى أهل درسدن ، وسيحق لكما أن تهنئا نفسيكما على « غفلتى » . لكن يجب أن تبقى المجموعة كما هى طالما كنت حيا . فإذا ما مت وواريتمونى التراب ساعدكما هذا الخير وأمثاله على بيعها ، وستضطران إلى ذلك لأن معاشى سينقطع بعد وفاتى .

وكانت أصابعه تلاطف الحافظات المسلوبة وهو يتحدث ، وكان الموقف مؤثراً رهيباً ، فلم أر قط على ألمانى منذ سنة ١٩١٤ مثل هذه السمات الدالة على السعادة الخالصة . وكانت زوجته وابنته ترقبانه وعيناهما مبللتان بالدموع ، ولكن إعجابى بالرجل وتقديرى إياه كانا منقطعى النظير . لقد أخذ يقلب الحافظ واحدة بعد واحدة ، ثم ينتقل من صورة إلى صورة ويتقبل إطرائى لكل واحدة منها . وتنفست الصعداء حين انتهى من عرضه ، ووضع الألواح البيضاء فى موضعها ، وأعدت الحجرة لتقديم القهوة .

وكان مضيفى أبعد ما يكون عن التعب ، كان يبدو كأنه قد استرد شبابه ، وأخذ يقص علىّ قصة بعد قصة ، ويذكر كيف حصل على لوحاته المختلفة ، وأراد أن يخرج مرة أخرى كل لوحة يجىء ذكرها ، وبلغ من تحمسه لهذا أن غضب حين أصررت وأصرت المرأتان على أننى لن ألحق القطار إذا أبقانى بعد ذلك فى منزله ...

وفى النهاية ودعنى وهو آسف لفراقى ، وقال برقة وصوت مضطرب ويداى بين يديه :

إن زيارتك قد أسعدتنى غاية السعادة ، ما أعظم سعادتى إذ أتيح لى أن أعرض مجموعتى على رجل يقدرها ، وأستطيع أن أفعل شيئاً أعبر به عن تقديرى ، وأجمل زيارتك لرجل هرم أعمى ذات قيمة ، سأضيف إلى وصيتى شرطاً يعطى متجرك ، وهو متجر يشهد بأمانته كل إنسان ، حق الإشراف على بيع مجموعتى بالمزاد .

ووضع يده على حافظاته التى لا تساوى شيئاً ...

واختلست نظرة إلى المرأتين وكانتا تجاهدان فى ألا يصل صوت ارتجافهما إلى سمعه الحاد ، ووعدت بما يستحيل علىّ أن أفى به ، وضغط على يدى لقاء ذلك .

وصاحبتنى زوجته وابنته إلى الباب ، ولم تحاولا قط أن تتحدثا ، لكن الدموع كانت تنهمر على خدودها . ولم أكن أنا نفسى أحسن منهما حالا ، لقد أتيت أنا

بائع التحف الفنية لأبحث عن صفقة ، لـكن الآية انعكست ، وأصبحت ملاكا من ملائكة الرحمة ، اشتركت فى خدمة أسعدت بها رجلا هرما .

لقد كنت أعد الـكذب عاراً ، ولـكنى فى هذه المرة سرنى أنى كذبت ، فلقد أثرت فى ذلك اليوم عاطفة من السرور تبدو غريبة وسط ما يحيط بنا فى هذه الفترة من حزن ووجوم .

وما كدت أخطو إلى الشارع حتى سمعت صوت نافذة تفتح ، واسمى ينادى ، ذلك أن الرجل الهرم ، وإن لم يكن يستطيع رؤيتى ، كان يدرك فى أى اتجاه أسير ، وإلى هذا الاتجاه اتجهت عيناه الـكفيفتان ، وقد ارتكز على حافة النافذة وأطل منها حتى قلقت المرأتان وأحاطتاه بذراعيهما مخافة أن يسقط ، وصاح وهو يلوح بمنديل :

رحلة سعيدة يا سيد را كنر .

كان صوته يرن كأنه غلام ، ولن أنسي قط وجهه الباش الفرح الذى يختلف كل الاختلاف عن وجوه الأشقياء البائسين الذين شاهدتهم فى الطريق . إن الخداع الذاتى الذى اعتنته على أن يحتفظ به قد حبب إليه الحياة وأنساه أحزانها . أليس جوته الذى قال : إن جامعي التحف خلائق سعداء ؟ .

٨

القمصان

لكارل كابك ١٨٩٠ — ١٩٣٩

(دكتور فى الفلسفة من تشكوسلوفاكيا . بدأ الكتابة وهو طالب فى جامعة براغ ، فلما أتم دراسته خص الأدب بجهوده كلها . ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها اتجه إلى كتابة التمثيليات وإخراجها ، ولكن القصة القصيرة كانت على الدوام من خير الوسائل التى عبر بها عن آرائه . وقد ترجمت معظم مقالاته ومسرحياته وقصصه القصيرة إلى أكثر اللغات الأوربية)

كان يريد أن يفكر فى مسائل أخرى أهم كثيراً من المسألة التى تشغل باله فى ذلك الوقت ؛ ولكنه رغم ما بذل من جهود لم يستطع تحويل أفكاره عن تلك الفكرة البغيضة التى ظلت مستحوذة على عقله ؛ لقد كانت ربة بيته لا تنقطع عن سرقة متاعه . إنها فى خدمته من زمن طويل ، وقد اعتاد طول هذه المدة ألا يفكر فيما يؤول إليه أمر متاعه الخاص . وكان فى حجرة نومه دولاب له يحتوى على ملابسه الداخلية ، يفتحه فى الصباح ويخرج منه قميصاً نظيفاً من أعلى كومة القمصان التى به . وكانت مسز چهنكا تأتى إليه بين الفينة والفينة فى فترات متفاوتة الطول وتعرض عليه قميصاً ممزقاً ، وتقول إن قمصانه كلها أضحت بهذه الحال السيئة ، وإن على سيدها أن يبتاع قمصاناً جديدة ، فيذهب من فوره ويبتاع ستة قمصان من أول متجر يلقاه ، ويخيل إليه أنه قد فعل هذه الفعلة نفسها من زمن قريب وكان هذا بعينه يحدث لأربطة الرقبة وأطواق القمصان والملابس والأحذية والصابون ولمئات الحاجيات التى تلزم الإنسان فى حياته العادية ولو لم يكن متزوجا ، فكان لابد له من تجديد كل شىء فى أوقات متقاربة . ولكنه كان يظن أن أمتعة الشيوخ من الرجال يتقادم عهدها ويبلى فى وقت قصير ، أو أنها يحدث لها ما ليس يعلمه إلا علام الغيوب .

ومن أجل هذا كان لا ينفك يبتاع متاعا جديداً ، فإذا ما فتح صوان ملابسه واجهته كومة من الملابس البالية الحائلة اللون التي لا يدرى متى صنعت . ولكنه كان يقول لنفسه : لا داعى للاهتمام بهذه الأمور لأن مسز چهنكا تعنى بها كلها .

والآن بدا له لأول مرة بعد هذه السنين الطوال أن متاعه يسرق سرقة منظمة . وخطرت له هذه الفكرة بالطريقة الآتية : لقد تلقى فى صباح ذلك اليوم دعوة إلى وليمة أقامتها إحدى الجمعيات ، ولم يكن قد تلقى دعوة مثلها من سنين طوال لأن أصدقاءه المقربين إليه قلائل ، ومن أجل هذا فقد حيرته هذه الدعوة المفاجئة ، وأبتهج لها أيما ابتهاج ، ولكنه أوجس فى نفسه خيفة منها . وكان أول ما فعل أن أخذ يبحث فى صوان ملابسه عن قميص يليق بهذا الحادث الجلل ، فأخرج قمصانه كلها منه ، ولكنه لم يجد بينها قميصاً غير ممزق عند كميه أو عند طوقه ، فاستدعى إليه چهنكا وسألها أليس لديه قمصان أحسن مما رأى ؟

وابتلعت مسز چهنكا ريقها ، وصمتت هنيهة ، ثم أعلنت فى لهجة شديدة أن من واجب سيدها بلا شك أن يبتاع قمصانا جديدة ؛ وأن من العبث أن يطلب إليها ترقيع القمصان القديمة لأنها أضحت أوهن من نسيج العنكبوت . على أنه كان يبدو له فى غير وضوح أنه ابتاع عدداً من القمصان من زمن قريب ، ولكنه لم يكن متحققاً من هذا . فصمت ثم شرع يرتدى معطفه استعداداً للخروج لشراء هذه القمصان ، فلما فعل هذا أخرج من جيبه بعض أوراق قديمة لينظر هل يحتفظ بها أو يمزقها ، فوجد من بينها آخر ثبت بأثمان القمصان التى ابتاعها منذ سبعة أسابيع لا أكثر ، نعم لقد ابتاع منذ سبعة أسابيع ستة قمصان وكان ذلك كل ماعرف .

فلما تبين له هذا لم يخرج لشراء قمصان جديدة ، بل أخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا ، وهو غارق فى تأملاته . وعادت إلى ذاكرته سنو خدمته الطويلة : لقد كانت چهنكا تشرف على منزله مذ توفيت زوجته ، ولم يرتب قط فى أمرها

أو يفقد ثقته بها ؛ أما فى هذه اللحظة فقد سرى فى نفسه شعور بعدم الاطمئنان . وأحس بأن متاعه كان يسرق منه طوال تلك السنين ، وتطلع حوله ولكنه لم يستطع أن يعرف بالضبط أى شىء ينقصه ، غير أنه أدرك لساعته أن من حوله فراغا ، وأن المكان مقفر ،وحاول أن يتذكر أنه قد كانت حوله فيما مضى من الأيام أشياء أكثر ونظرات أشد عطفا مما يحيط به اليوم . . . . وآلمه هذا الإحساس وفت فى عضده ، ففتح أحد الأدراج التى كان يحتفظ فيها بذكريات زوجته ، ومنها ملابس وقمصان، فألفى فيه قطعا منها بالية ، ولكنها قد ذهب عنها روح المـــاضى كله . رباه ! ما أكثر الأشياء التي خلفتها زوجته ! ترى أين ذهبت جميعها ؟

ثم أغلق الدرج وأرغم نفسه على التفكير فى موضوعات غير هذا الموضوع ، كالحفلة التى دعى إليها فى تلك الليلة . ولكن تلك السنين الخالية عادت إلى ذاكرته وألحت عليه ، وبدت له الآن أعظم إقفارا ، وأكثر مرارة ، وأشد بؤسا ، مما كانت وهو يمر بها ويعيش فى خلالها ؛ ولاحت له فجأة وكأنها سنون قد انتهبت من عمره انتهابا ، وأنها تنفث فيه آلام الوحدة والكآبة ، وما من شك فى أن آلامه هذه كانت تفارقه فى بعض الأيام المـاضية فيرضى بحاله ويقنع بما قسم له ، فيكون كالمريض الذى يتناول مخدرا لينام بعض ساعات الليل . أما الآن فقد أمضه أن يحس بنوم الرجل الذى لا رفيق له ولا أنيس ، والذى تمتد الأيدى القريبة إليه فتسرق كل ما لديه على الوسادة التى تحت رأسه ؛ وشعر وقتئذ بأنه شقى بائس يقاسى ألمـا يحز فى نفسه أشد من كل ما عرفه منه منذ ذلك اليوم الذى عاد فيه من جنازتها . وأحس أنه متعب تقدمت به السنون وأنه إنسان قست عليه الأيام .

على أن شيئاً واحدا لم يكن فى وسعه أن يتبينه : لم يا ترى تسرق متاعى ؟ وماذا تفعل بمـا تسرق ؟ ثم تذكر فجأة بشىء من الرضا الذى يقترن به جب الأذى أن لها ابن أخت فى مكان ما ، وأنها مغرمة به إلى حد الجنون . وقال فى نفسه : « ألم

أستمع طويلا إلى ثرثرتها فى وصف هذا الشاب وقولها عنه إنه زهرة الشبان الناضرة ؟ إنى أذكر أنها قد أطلعتنى من زمن وجيز على صورة شمسية له ، وأشارت إلى شعره الجعد ، وأنفه الأفطس ، وشاربه القبيح ، وإن كانت هى فى ذلك الوقت قد أخذت تمسح الدموع التى تحدرت من عينيها إعجابا به وافتخارا . وقال فى نفسه هأنذا قد عرفت أين يذهب متاعى كله ! وثارت ثائرته حين فكر فى هذا فيمم شطر المطبخ مسرعا ونادى جهنكا قائلا : « أيتها العجوز الشمطاء اللعينة ! » أو شيئاً من هذا القبيل ، ثم قفل راجعا وتركها مذعورة تقلب عينيها المحدقتين الشبيهتين بعينى النعجة العجوز .

ولم يتحدث إليها قط بقية ذلك النهار ، وظلت هى تتحسر كأن إهانة شديدة لحقتها ، وتلقى عن يمينها وشمالها كل ماتصل إليه يدها من أدوات البيت ، وهى لا تعرف قط منشأ هذه المتاعب الجديدة . وأخذ بعد ظهر ذلك اليوم يحصى ما فى صوانه وأدراجه ؛ فهاله ما وجد ، وتذكر هذا الشىء وذاك مما كان له فى وقت من الأوقات ؛ من تذكارات قديمة خلفتها له أسرته ، وبدت له الآن ذات قيمة لا تقدر بمال ، وها هى ذى لم يبق منها شىء — لم يبق منها شىء قط كأن نارا عظيمة قد التهمتها ، وأوشك الرجل أن تنهد قواه فيبكي من فرط الغضب والوحدة .

وجلس بين الأدراج المفتوحة يلهث من فرط الغضب ، يغطيه الثرى — ويمسك فى يده الأثر الوحيد الذى تبقى له — وهو كيس نقود والده المصنوع من الخرز ، والذى بلى الآن وحدثت فيه الثقوب من طرفيه . ترى كم من السنين ظلت تسرقه حتى لم تبق له قط شيئاً ؟ لقد كاد يتميز من الغيظ ؛ ولو أنه التقى بها فى تلك اللحظة للطمها على وجهها . وقال فى نفسه وهو مضطرب ثائر : « ماذا أنا فاعل بها الآن ؟ أأطردها من خدمتى على الفور ؟ أأسلمها إلى الشرطة ؟ ولكن من يطهو لى طعامى غدا ؟» ثم قرر أن يتناول طعامه فى مطعم ، ولكنه عاد فقال : « ولكن من يسخن

لى الماء و يوقد النار للتدفئة؟ » . ثم استجمع قواه بجهد عنيف وقال فى نفسه مؤكدا هذا القول أشد التوكيد : «سأفصل فى هذا كله غدا ، ومن يدرى ماذا يحدث غدا؟ لشد ما يؤلمنى أن أفكر فى أننى أعتمد عليها ! » بيد أن ذلك الأمر قد فت فى عضده أكثر مما كان يريد أن يعترف به ، وكل ما كان يحفظ عليه شجاعته فى ذلك الوقت هو شعوره بأن ظلما قد حاق به و بأنه لا بد أن ينتقم لنفسه ممن ظلمه .

ولما أرخى الليل سدوله استعاد من فوره ما أمكنه من أن يدخل على جهنكا فى المطبخ و يقول لها من غير مبالاة : «يجب أن تخرجى من عندى إلى حيث تريدين» ثم طلب إليها أن تخرج لقضاء أعمال لا صلة لها بالموضوع الذى كان يشغل باله ، وتستغرق من وقتها زمنا طويلا . وقال إنها يجب أن تنجزها فى الحال ، وكان قد أجهد نفسه من قبل فى التفكير فى هذه الأمور . ولم ترد عليه جهنكا بلفظ واحد بل خرجت للقيام بما طلبه إليها ، وظهر عليها من الألم ما يظهر على الشهداء الأطهار .

وسرعان ما أغلق باب الدار وراءها بقوة ، وأصبح هو وحده فيها ، فتسلل إلى المطبخ وقلبه يخفق خفقانا سريعا ، وأمسك بمزلاج الباب ، ولكنه تردد فى فتحه . واستولى عليه أشد الرعب حين شعر بأنه لن يوتى من الشجاعة ما يستطيع به أن يفتح صوانها ، فقد خيل إليه أن هذا العمل هو التلصص بعينه ، ولكنه حين أوشك أن يمتنع عنه بتاتا انفتح الباب فى يده ، وكأن هذا قد حدث من غير إرادته ، ودخل هو المطبخ فرآه يكاد يتلألأ من نظافته وحسن ترتيبه . وأبصر أمامه صوان جهنكا ، ولكنه كان مغلقا وليس فيه مفتاح ، فزاده هذا تصميما على تنفيذ قصده ، فأمسك بأخذ سكاكين المطبخ وحاول أن يفتح به باب الصوان ، ولكنه استعصى عليه ، فعاد يبحث عن المفتاح فى كل درج من أدراجه ، وجرب كل مفتاح من مفاتيحه الخاصة ، ثم ظل نصف ساعة يحاول فتحه بكل ما يستطيع من وسائل ، ثم وجد آخر الأمر أن باب الصوان غير مغلق وأن فى وسعه أن يفتحه بجذبه إليه .

فلما فتحه وجد ملابسه الداخلية مكوية ومرتبة بدقة وعناية على رفوف متفرقة، فكان على الرف العلوى منها قمصانه الستة الجديدة ، مربوطة بالرباط الأزرق الذى ربطها به بائعها ، ووجد فى صندوق من الورق المقوى مشبك زوجته وفيه حجر المرو الأزرق البنفسجى، وزرى قميص أبيه المصنوعين من اللؤلؤ ، وصورة أمه ذات الإطار العاجى — بالله وهل لهذه الصورة نفسها فائدة لديها ؟ وأخرج كل ما فى الصوان فوجد فيه جوار به وأطواق قميصه ، ووجد صندوقين من الصابون ، وفراجين أسنان ، وصدرية من الحرير ، وأكياس وسائد ، ومسدسا قديما لوالده ، ومبسما من الكهرمان ملونا بالدخان لا نفع فيه . لقد كانت هذه بعض ما اختفى من متاعه ، أما الباقى وهو معظمه فقد ذهب من زمن بعيد إلى ابن أختها ذى الشعر الجعد . وخمدت نار غضبه ولكن نار الألم بقيت تحز فى فؤاده . إذن فهذا ما كان يحدث طوال الأيام الماضية... أى جهنكا ! جهنكا ! هل أستحق هذا كله منك ؟ .

ونقل هذه الأشياء كلها واحداً بعد واحد إلى حجرته ، وبسطها أمامه على النضد، فكان منها معرضا رائعا لكل ما يتصوره الإنسان من المتاع الخاص. فأما ما كان منها ملكا لجهنكا فقد أعاده إلى صوانها فى المطبخ . ولقد فكر فى بادئ الأمر أن يعيده بالنظام الذى كان عليه ، وبذل فى ذلك بعض الجهد ، ولكنه لم يوفق ، فوضعه فى غير نظام وترك الصوان نفسه مفتوحا كما يتركه اللصوص على عجل . ثم بدأ يخشى أن تعود جهنكا ، وفكر فى أنه سيضطر إلى أن يصارحها بالحقيقة . . . وآلمته هذه الفكرة أشد الألم ، فبدأ يرتدى ملابسه لساعته . وقال فى نفسه : ما أترك تأنيبها إلى الغد ، وحسبها اليوم أن تدرك أنى عرفت حقيقة أمرها . وأخرج من قمصانه قميصا جديداً منشى كأنه الورق المقوى ، حتى لقد عجز رغم ما بذل من جهد عنيف عن أن يضع فيه طوقه ، ثم أخذ يفكر فى أن جهنكا قد تعود إلى المنزل فى أية لحظة ، فلم ير بدا من أن يلبس قميصه القديم ، فلبسه مسرعا رغم أنه وجده

ممزقا . وما كاد يرتدى حلته حتى تسلل من الدار كما يتسلل اللصوص ، وظل ساعة يتسكع فى الطرقات فى المطر المنهمر حتى آن أوان المأدبة . وشعر وهو بين الجمع الحاشد أنه وحيد ، وحاول أن يتحدث حديثا وديا إلى بعض معارفه ، ولكنه وجد أن السنين قد فرقت بطريقة لا يعرفها بينه و بين غيره من الناس ، رباه ! لقد أصبح من أصعب الأمور عليهم أن يفهم بعضهم بعضا . على أنه لم يجد فى قلبه حقداً على أحد ، ووقف بمفرده ، وتبسم ، وقد راعته الأنوار المتألقة ، وحركات الجموع المحتشدة وأصواتهم ، وظل كذلك حتى تولاه الفزع من جديد لسبب لا يعلمه ... وقال فى نفسه : ترى كيف يبدو مظهرى فى أعين الحاضرين ؟ ها هى ذى خيوط متدلية من قميصى و بقعة سوداء على سترتى ، أما حذاءى فلا حاجة لى بأن أذكر عنهما شيئا . وتمنى لو استطاع أن يغوص فى الأرض غوصاً ، وأخذ يلتفت يمنة و يسرة لعله يجد له مكانا يختبئ فيه ، ولكنه كان يجد فى كل ناحية قمصانا لامعة براقة . . . . فأى مكان يستطيع أن يتسرب إليه دون أن يراه أحد ! وكان يخشى أن يخطو خطوة نحو الباب لئلا يستلفت إليه أنظار الحاضرين جميعا ، فارتبك وتبلل جسمه بالعرق ، وتظاهر بأنه واقف لا يتحرك ، ولكنه كان طوال الوقت يحرك قدميه إصبعا بعد إصبع حتى يصل إلى الباب دون أن يكشف سره أحد . غير أنه لسوء حظه التقى فى تلك اللحظة بأحد معارفه الأقدمين ، وكان زميلا له فى المدرسة الثانوية ؛ فزاد ذلك فى حيرته وارتباكه . وتحدث إليه هذا الرفيق فأجابه ، وهو مرتبك ، جوابا خشى أن يكون فيه ما يسىء إليه . ولما أن وجد نفسه مرة أخرى بمفرده تنفس الصعداء وقاس المسافة التى بينه و بين الباب ، وأخيراً أسرع بالخروج وعاد إلى بيته ولم يكن منتصف الليل قد حان .

وعادت صورة جهنمكا إلى عقله وهو عائد إلى منزله . وأمتلأ فمه بالحديث السريع ، وأخذ يفكر فيما يقول لها حين يلتقى بها ، فتتابعت عليه العبارات الطويلة القوية المرتبة ، وتتابعت فى يسر لم يعهده من قبل ، وتألفت منها خطبة طويلة من

التقريع الشديد والرأفة فى النهاية . نعم ، الرأفة ؛ فسيصفح عنها آخر الأمر؛ وهل يليق به أن يخرجها من داره ويلقى بها فى الطريق ؟ فستبكى جهنكا وتتضرع له ، ثم يتوب وتعاهده على ألا تعود إلى فعلتها ، وسيصغى إليها وهو صامت لا يتحرك ، ثم تقول لها آخر الأمر فى كبرياء وأنفة ، « أى جهنكا ؛ يجب أن تكونى شريفة وفية ، ولست أطلب إليك أكثر من هذا : فأنا رجل شيخ ، ولست أحب أن أقسو عليك » .

وشغله تفكيره هذا وملك عليه لبه ، فلم يدر إلا وهو أمام منزله يفتح بابه ، فلما دخل أبصر ضوءا فى حجرة جهنكا ، فتطلع فى المطبخ من بين ستائر حجرته ؛ رباه ! ما هذا ؟ ها هى ذى جهنكا محمرة الوجنتين ، منتفخة العينين من شدة البكاء ؛ ها هى ذى تتحرك مسرعة فى المطبخ ، تلقى بأشيائها فى حقيبة . وراعه ذلك وأفزعه ، ترى لم تلقيها فى الحقيبة ؟ وتسلل إلى حجرته ماشيا على أطراف أصابعه ، وهو مرتبك مهموم لا يدرى ماذا يفعل . هل اعتزمت جهنكا أن تترك خدمته ؟

لقد كانت كل الأشياء التى سرقتها منه مصفوفة أمامه على النضد . وها هو ذا يلمسها بأصابعه ولكنه لا يجد لذة قط فى استعادتها . وقال فى نفسه . « ها هى ذى جهنكا قد عرفت أنى كشفت عن جريمة السرقة وتتوقع أن أطردها من خدمتى لساعتها — وهذا بلا ريب هو السبب الذى يجعلها تحزم متاعها ، سأتركها على عقيدتها هذه إلى صباح غد ، وحسبها هذا عقابا لها ، نعم سأتحدث إليها فى الصباح ولكن ربما — ربما جاءتنى فى هذه الساعة واستسمحتنى ؛ ستذرف الدمع من عينيها ، وستخر راكعة على ركبتيها ، وتندم على فعلتها . وسأقول لها : حسبك هذا يا جهنكا ، إنى لا أريد أن أقسو عليك ، وستبقين فى خدمتى إن شئت .

وجلس مرتديا ملابس السهرة ينتظر ماتتطور إليه المسألة . وساد المنزل سكون — سكون شامل لا يقطعه إلا وقع خطى جهنكا وهى رائحة غادية فى المطبخ ، وصوت غطاء الحقيبة وهى تغلق بقوة . ثم ساد السكون مرة أخرى . ما هذا ؟ لقد قفز من

مكانه مرتاعا وأصغى : إنه عويل مرعب طويل كأنه صوت مخلوق غير آدمى . ثم استحال هذا الصوت نحيبا هستيريا ؛ أعقبه صوت وقوع ركبتين آدميتين على الأرض ثم عويل مكبوت . إن جهنكا تبكى . لقد كان يتوقع شيئاً بلا ريب ، ولكنه لم يكن يتوقع هذا كله ؛ ثم وقف وقلبه يخفق خفقانا شديدا ، وأصغى لما كان يحدث فى المطبخ . لم يكن يحدث شىء غير البكاء . إن جهنكا لن تلبث أن تعود إلى صوابها وتطلب المغفرة .

وعاد يخطو فى الحجرة ليستعيد رباطة جأشه إذا ما أتت ، ولكنها لم تأت . وصار يقف بين الفينة والفينة ويصغى ، فوجد أن نحيبها قد استحال إلى سلسلة مملة من عواء لا تضعف حدته . وكان هذا اليأس الرهيب شديد الوقع عليه ، فاعتزم أن يذهب هو إليها ويكتفى بأن يقول لها : « فليكن هذا درسا تتعلمينه يا جهنكا . وكفى هذا البكاء ، سأنسى كل شىء ، ولتكونى أمينة فى المستقبل » .

ثم فتح الباب عليه فجأة واندفع إنسان بقوة ، ونظر فإذا جهنكا واقفة عند مدخل الحجرة ، وهى لاتزال تعوى كما كانت تعوى من قبل ؛ لقد هاله أن يرى وجهها المتورم من طول البكاء .

فقال وهو يلهث : « جهنكا » .

فانفجرت جهنكا تقول : « هل — هذا هو جزائى منك ؟ أتجزينى عن خدمتى كما يجزى اللصوص — يا للعار ! »

فصاح مرتاعا : « ولكنك ياجهنكا — لكنك قد أخذت أشيائى — كل هذه الأشياء — ألا ترينها ؟ هل أخذتها أو لم تأخذيها ؟ »

ولكن جهنكا لم تسمع شيئاً من أقواله : « هل أطيق هذا — يا للعار — تقلب ما فى صوانى — كأنى — غجرية نشالة ، وتؤلمنى إلى هذا الحد — لم يكن من حقك أن تفعل هذا يا سيدى — لم يكن من حقك — أن تهيننى — لا —

أبدا — حتى يوم مماتى — هل كنت أتوقع مثل هذا ؟ هل أنا لصة حقا ؟ أنا — أنا لصة بحق ؟ » ثم صرخت صراخا شديدا ينم عن ألم شديد « هل أنا لصة بحق ؟ أنا لصة وهذه أسرتى — إن ذلك ما لم أكن انتظره مطلقا — ولم أكن استحق شيئاً من هذا ! »

وقال لها وقد كادت تفارقه كل قواه « ليكن لديك يا جهنكا شيء من العقل. فهل تستطيعين أن تخبريني كيف وضعت هذه الأشياء كلها فى صوانك ؟ هل هذا من متاعك أو من متاعى ؟ انطقى أيتها المرأة الصالحة هل هذا لك ؟ »

وقالت جهنكا وهى تنتحب : « لا أريد أن أسمع شيئاً . رباه — يا للعار ! كأنى — غجرية — يفتش صوانى » . ثم صاحت وهى فى شدة الانفعال : « ولكنى فى هذه اللحظة — فى هذه اللحظة سأغادر المنزل. لن أبقى هنا إلى الصباح — كلا ؛ لن ابقى — لن أبقى » .

فقال لها وقد هاله ما رأى : « ولكن استمعى إلىّ ، إنى لا أريد أن أطردك ؛ ستبقين عندى يا جهنكا . أما ما حدث فلعل الله أن يمنع عنا بفضله ما هو شر منه ؛ وأنا لم أقل لك حتى الآن كلمة واحدة عنه ، فلا داعى لهذا البكاء » .

فقالت جهنكا وعبراتها تخنقها : « لك أن تستخدم غيرى ؛ إنى لن أقيم معك إلى الصباح . كأن الإنسان كلب — من واجبه أن يتحمل كل شيء — لا لن أبقى » . ثم صرخت صراخ اليائس المغيط : « لن أبقى ولو عرضت علىّ آلافا مؤلفة ؛ لخير لى أن أقضى الليلة فى الطريق » .

فقال لها وهو يحاججها محاججة اليائس : « ولكن لمَ هذا يا جهنكا ؟ هل جرحت إحساسك ؟ ولكنك لا تستطيعين أن تنكرى . . . . »

فردت عليه جهنكا بصوت ينم عما تشعر به من إهانة ، « لا ، لم تجرح إحساسى — ليس يجرح إحساسى أن تفتش صوانى — كأنى لصة ! لا ليس فى هذا جرح

للاحساس — ومن واجبي أن أحتمله ! — إن أحدا لم يفعل بي قط مافعلته أنت — يا للعار . لا لست ممن يطيقون هذا » . ثم استسلمت للنحيب واندفعت إلى خارج الحجرة وأغلقت الباب بقوة .

وتحير فى أمره أشد الحيرة . أيحدث هذا كله بدل التوبة والندم ؟ ما معنى هذا ؟ إنها تسرق كما يسرق اللصوص ، وهذا أمر لا شك فيه ، ثم تشعر بأنها قد لحقتها إهانة شديدة ، لأنى عرفت أنها قد سرقت ؟ إنها لاتستحى من السرقة ، ولكنها تتألم أشد الألم وتحس بأنها أهينت إذا قيل لها إنك سرقت . فهل جنت هذه المرأة ؟

ولكنه أخذ يشعر رويدا رويدا بشىء من الأسف لما أصابها . وقال فى نفسه: « إن لكل إنسان عيوبه ونقط ضعفه ، ولكن أشد ما يؤلمه أن تواجهه بهذه العيوب. ألا ما أكثر ماينطوى عليه الإنسان من خلق طيب وإحساس كريم حتى بين عيوبه وأخطائه ! وما أشد شعوره بالألم وهو غارق فى بحار آثامه ! فإذا ما وضعت إصبعك على رذيلته التى يحاول إخفاءها عن الأعين ، لم تسمع منه إلا صراخ الألم والغضب . ألا تشعر بأنك وأنت تحكم على المسيء إنما تحكم على إنسان قد أسأت أنت إليه ؟

وانتقل إليه من المطبخ صوت بكاء تكبته حشية من ريش ، وأراد أن يذهب إليها ولكنه وجد الباب مغلقا فوقف أمامه يحاول أن يحاججها ، وأخذ يلومها ثم يحاول أن يهدئها ، ولكنها لم ترد عليه بغير النحيب العالى الشديد . فعاد إلى حجرته وهو لا يكاد يحتمل ما سرى فى نفسه من عطف عليها وشفقة بها . فها هو ذا متاعه المسروق مصفوف على النضد ، قمصان جديدة جميلة ، وملابس داخلية كثيرة ، وتذكارات قديمة ، وما إليها . وأخذ يلاطف هذه الأشياء بأصابعه ولكنه كان يحس وهو يلمسها بشىء من الحزن والقنوط .


Bibliotheca Alexandrina
04428629